حضارة العرب قبل الإسلام



أ.د. زيدون حمد المحيسن
د. نزار الطرشان

طبع بدعم من
وزارة الثقافة
عمان - الأردن


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

حضارة العرب قبل الإسلام

الثموديون، الصفويون، الأنباط، الغساسنة



حضارة العرب قبل الإسلام

الثموديون، الصفويون، الأنباط، الغساسنة

تأليف

الاستاذ الدكتور زيدون حمد المحيسن

الدكتور نزار الطرشان



الآراء الواردة في الكتاب

لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

اربد ٢٠٠٥م

زيدون حمد الحيسن - نزار الطرشان

حضارة العرب قبل الإسلام: الثموديون، الصفويون، الأنباط، الغساسنة.

الناشر

مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع

اربد - الاردن

تلفاكس 00962-2-7270100 ص. ب. 1284 اربد21110.

رقم الاجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر: (٢٠٠٥/٣/٥٨٤)

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٥/٣/٥٩٥)

٩٥٦

الحيسن، زيدون

حضارة العرب قبل الإسلام/ زيدون الحيسن، نزار الطرشان

اربد : مؤسسة حماده، ٢٠٠٥

ر. أ.(٢٠٠٥/٣/٥٥)

الواصفات : التعصب القبلي/ الحضار العربية/القبائل العربية

تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الفهرس



الفصل الأول

العرب في الجزيرة العربية

الفصل الثاني

الثموديون (قوم صالح)

الفصل الثالث

الصفويين

الفصل الرابع

الأنباط

الفصل الخامس

الغساسنة

الإهداء

إلى الشعوب العربية والإسلامية التي كرمها الله سبحانه وتعالى بديانات سماوية وبأنبياء ورسل عرب عليهم السلام قبل الإسلام. وتوّج هذا التكريم بأن أنزل عليهم القرآن الكريم بلغتهم، وأصبح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً للرسل والأنبياء.

إلى أبنائنا الطلبة الكرام ليتخذوا من الرسالة المحمدية نبراساً يضيء لهم الطريق.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

جـــاء هذا الكتاب بعد بحث ومناقشات علمية طويلة جادة، كان الهدف منها إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود بهذه الصورة الطيبة لحضارة العرب قبل الإســـلام، وتقـــديمها للمثقفين وطلبة الجامعات، بأسلوب مختلف عن العديد من الدراســـات، التي تطرقت إلى حضارة العرب قبل الإسلام، سواء ما كتب منها بالعـــربية، أو بالأجنبية، فقد تم التركيز في هذا البحث على الحضارة المادية التي خلفتها الحضارة العربية قبل الإسلام، كما تم إلقاء الضوء على الإرث الحضاري وتفاصيل حياة تلك القبائل العربية، وعلاقاتهم بالأمم والحضارات المجاورة لهم.

حـــيث كـــرمهم الله عز وجل، بأن أنزل عليهم ديانات سماوية، ورُسل وأنبـــياء عـــرب عليهم السلام. وقد كان ختام هذه الديانات الإسلام العظيم، حـــيث أنزل الله عز وجل القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم العربي الأمي ليكون الإسلام خاتمة الديانات وديناً للناس أجمعين.

وبعد البحث الطويل والعناء الشديد الذي قمنا به برفقة زميلي الدكتور نـــزار الطرشـــان من قسم الآثار في جامعة اليرموك، خرجنا بهذا البحث العلمي موضـــوع هذا الكتاب "الحضارة العربية قبل الإسلام" ليرفد المكتبة العربية بإلقاء الضوء على الدور الحضاري والمادي للعرب قبل الإسلام.

والله ولي التوفيق

الأستاذ الدكتور زيدون المحيسن
كلية الآثار والأنثروبولوجيا
جامعة اليرموك – اربد – الأردن
www.muheisenz.homestead.com

المقدمة:

لا ريب أن موضوع العرب قبل الإسلام من المواضيع الهامة التي ناقشها الكـــثير من العلماء العرب والمستشرقين الأجانب، وفي هذا البحث تم إلقاء المزيد مـــن الضوء على هوية القبائل العربية المنتشرة في شبه الجزيرة العربية وأسلوب معيشـــتها، وتاريخهـــا السياسي والاجتماعي، ودورها الحضاري اعتماداً على ما خلفته من ثروة حضارية ولغوية كبيرتين.

وهـــدف هذا البحث هو إلقاء بعض الضوء على بعض قبائل العرب قبل الإســـلام، ودراســـة حـــياتها، ومجـــتمعها، وحضارتها، وتأثيرها وتأثرها بأقوام ومجتمعات أخرى.

وقـــد تم اختيار هذا البحث لما له من أهمية تاريخية في معرفة أهم الأقوام العـــربية القديمـــة التي سكنت الجزيرة العربية في الماضي، واستطلاع لحضارتهم المدفـــونة في مجاهل الصحراء، والتي دون شك تحتوي على مزيد من الأسرار غير مكتشـــفة لغايـــة اليوم. ولإلقاء مزيد من الضوء على تلك المجتمعات العربية التي شكلت جذور الإنسان على هذه الأرض.

ولقد أثار هذا الموضوع اهتمام الكثيرين، مما دفعهم لدراسته والتعمق فيه، ومحاولة الوصول لمعلومات وأفكار جديدة تخص العرب قبل الإسلام. وبالرغم من الدراســـات والاكتشـــافات المتزايدة، لا يزال هنالك غموض وأسرار في مجاهل الصـــحراء تنتظـــر اكتشاف حضارات مدفونة تحت الأنقاض لم تصل لها أيدي العلماء لغاية الآن، ولذلك يجب أن يلتفت الإنسان لماضيه وتراثه ولا يتركه لعبث الغرباء عن الأرض. ومن هنا تأتي أهمية دراسة التراث الحضاري رغم ما يصاحبها من صعوبات وعوائق جمة.

وهـــذا الـــبحث مقسم إلى خمسة فصول: الفصل الأول يتناول **المصادر التاريخـــية** التي ذكرت العرب، سواء **المصادر العربية أو الأجنبية**، ومحاولة بيان صدق كل مصدر من هذه المصادر ورواياته التاريخية. ثم نعرض للموقع الجغرافي، والبيـــئة الطبيعـــية، والأقسام السياسية لشبه الجزيرة العربية، وأصل لفظة العرب وطبقاتهم الثلاث، وعن ثقافة وعلوم العرب الأوائل الذين سكنوا الجزيرة العربية.

أمّـــا الفصل الثاني، فهو يتحدث عن قوم جاء ذكرهم في القرآن الكريم، وكانـــوا يلقبون بـــ "قوم صالح"، ألا وهم الثموديون. وهؤلاء الثموديون نحتوا بـــيوتاً فارهـــة في الجبال، وعاثوا في الأرض فساداً، وتكبروا على رهم ونبيهم، فكانـــت نهايـــتهم تدميراً تاماً من الله سبحانه وتعالى. وفي هذا الفصل دراسة في أصـــل الثموديين، وموطنهم، والنقوش الثمودية الكثيرة التي خلّفوها، ومجتمعهم المتحضر في نسق المقاييس الحضارية السائدة آنذاك، من حيث الزراعة، والتجارة، والحرب والقتال، والديانة، والمدافن...الخ.

الفصـــل الثالث فقد خصص للحديث عن قبيلة عاشت في الجزء الجنوبي مـــن بلاد الشام، وتركت الكثير من النقوش المسماة بالنقوش الصفوية، وسكانها قـــوم يطلـــق حالـــياً عليهم لفظ الصفويين. والصفويون قوم يحيطهم الكثير من الغمـــوض والأســـرار، ولا تكفـــي النقوش الموجودة لتغطية حياتهم وأسلوب معيشـــتهم، ولكن حاول الدارسون استخلاص المعلومات والنتائج من الكتابات والنقوش المتوفرة. وهذا الفصل يتحدث عن أصل الصوفيين وموطنهم، والنقوش الـــتي خلّفـــوها، والمجتمع الصفوي وما يشمله من مواضيع كالرعي، والزراعة، والتجارة، والحرب والقتال، والديانة، والمدافن.

والفصـــل الرابع يتناول الأنباط وأصلهم وحضارتهم ومناحي حياتهم مع التركيز على أهم أوابدهم التي لا تزال ماثلة حتى الآن شاهدة على ما كانت عليه مدنيتهم.

أمّا الفصل الخامس، فقد خصص لدولة عربية هاجرت إلى شمال الجزيرة العـــربية مـــن جنوبها بحثاً عن أراض جديدة، وهي دولة الغساسنة التي تطورت وازدهرت وبلغت أوجها في عهد ملوك وأمراء غسانيين. وفيه دراسة حول أصل الغساسنة وملوكهم وأمرائهم بالترتيب تبعاً لسنين حكمهم.

وبعد، فإن هذا الكتاب لبنة تكاد تفتقر إليها المكتبة العربية، رغم ما كتب في هذا السياق، إلا أن السياقات السابقة اعتمدت في أكثرها على النص التاريخي، وقد رأت هذه الدراسة أن يكون للشاهد المادي "الأثري" نصيب في ذلك، وهذا ما قد يقع في باب الإضافات العلمية الحديثة على مثل هذا الموضوع.

الفصل الأول

العرب في الجزيرة العربية

- المصادر التاريخية التي تذكر العرب.
- الموقع الجغرافي، البيئة الطبيعية، والأقسام السياسية لشبه الجزيرة العربية.
- لفظة العرب: مدلولها وتطورها التاريخي.
- طبقات العرب.
- العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

المصادر التاريخية التي تذكر العرب

إن البحث في التاريخ السياسي والاجتماعي للعرب في العصر السابق على ظهور الإسلام ودراسة المنابت الأولى للحضارة العربية يستثير اليوم اهتمام الكثير من أبناء العربية في مختلف أنحاء العالم العربي ممن يتطلعون إلى معرفة أمتهم العربية ومنسبت قوميستهم، بغية الرد على أباطيل أعدائهم، والتزود من أحداث الماضي ووقائعسه بعسبرات وعظات، قد تعينهم على إدراك تراثهم وتحديد موقفهم من قضاياهم المعاصرة (سالم ١٩٨٠: ٧).

فمنذ قرن واحد من الزمان، كانت معلوماتنا عن تاريخ بلاد العرب قبل الإســلام تعــتمد علــى ما جاء في التوراة، وعلى ما كتبه المؤرخون الأغارقة والــرومان، ومــا كتبه العرب عن تاريخهم قبل الإسلام، أو من الشعر الجاهلي. ولكــن كل ذلك تغير عند اكتشاف النقوش، وهي مخربشات (Graffiti) على واجهات الصخور، أمدتنا بالكثير من المعلومات والحقائق والأدلة الواضحة على هذه الحضارة، وساعدتنا في تكوين صورة أولية عما كان جارياً في البلاد القديمة قبل الإسلام (مهران ١٩٨٠: ٢٥).

وبالــرغم من أن تاريخ العرب القديم يشكل موضوعات هامة، غير أن الــتاريخ الجاهلي لم يلق من عناية الباحثين القدامى والمحدثين إلا حظاً يسيراً[1].

---

11) الجاهلــية اصطلاح مستحدث ظهر بظهور الإسلام، وقد أُطلق على حال قبل الإسلام تمييــزاً وتفريقاً لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة، وبذلك يمكن إطلاق كلمة جاهلية على العرب قبل الإسلام (علي ١٩٧٦: ٣٧).

وقد اعتمد العلماء والآثاريون على مصادر كثيرة ومتنوعة في معرفة تاريخ العرب القديم، ولكن هذه المصادر تنحصر في ثلاثة أنواع مهمة:

الأول: المصادر الأثرية: وتتضمن النقوش الكتابية والآثار المعمارية.

الثاني: المصادر العربية المكتوبة: وأهمها القرآن الكريم، والحديث، وكتب التفسير، وكتب السيرة والمغازي، وكتب التاريخ والجغرافية البلدانية، والشعر الجاهلي.

الثالث: المصادر غير العربية: وتشمل التوراة والتلمود، وكتب التاريخ اليونانية، والرومانية، واللاتينية، والسريانية، والبيزنطية، والمصادر المسيحية (سالم ١٩٨٠: ١٣).

ويقصد بالمصادر الأثرية، الآثار غير المنقولة والآثار المنقولة، أمّا الآثار غير المنقولة فهي: الآثار المادية الباقية، والتي تبدأ بما خلفه الإنسان البدائي القديم في دهوره الحجرية من أدوات متواضعة ورسوم بدائية، كما تتضمن أساساً ما تركته الجماعات العربية المتحضرة في عصورها التاريخية من آثار معمارية قائمة: كبقايا المعابد، والسدود، والأسوار، والحصون، وآثار منقولة: كالتحف المعدنية، والعملات، والتحف الخشبية والخزفية، وغير ذلك من المواد التي يسهل حملها ونقلها.

وتعتبر النقوش الأثرية المكتوبة من أهم مصادر التاريخ بوجه عام، والتاريخ العربي القديم بوجه خاص، لأنها الشاهد التدويني الوحيد الباقي من تلك الأيام (علي ١٩٧٦: ٤٤)، ولأن أكثر ما وصل إلينا عن العصر الجاهلي في المصادر العربية المدونة لا يعدو أن يكون روايات يغلب عليها الطابع الأسطوري وتختلط فيها الحقيقة بالخيال. ولهذا السبب تطلع الباحثون الأوروبيون منذ أواخر

القــرن التاسع عشر إلى الاعتماد على دراسة النقوش العربية القديمة التي تم العثور علـيها في بـلاد العرب، واستنباط مادة تاريخية من واقع ما ورد فيها من وثائق تتضـمن أسمـاء الملـوك وألقابهم وأعمالهم ودياناتهم (سالم ١٩٨٠: ١٤). فقد ظهـرت النقوش اليمنية، وعشرات الآلاف من المخربشات القصيرة على سطوح الصـخور بـين ثمودية، ولحيانية، وسبئية، وغيرها، فضلاً عن تلك التي وجدت خارج شبه الجزيرة العربية، كالنقوش الصفوية مثلاً.

على أنه يجب أن نلاحظ أن في هذه المصادر الأثرية نقاط ضعف كثيرة، منها أنها في معظمها تتشابه في مضمونها وفي إنشائها لأنها تتعلق بأمور شخصية، ومـن ثم فقد كانت أهميتها لغوية أكثر منها تاريخية، ومنها أيضاً فأن معظمها قد وجـد في المعابـد والقـبور، ومن ثَمّ فهي ذات صبغة دينية. وأيضاً نلاحظ أن الكـتابات المـؤرخة منها قليلة، ولم تهدنا إلى تقويم ثابت يمكن القول أن العرب القدامى كانوا يستعملونه (مهران ١٩٩٤: ٥٠، ٥١).

لا يمكن لأحد أن ينكر المعلومات والوقائع التاريخية القيمة التي أمدتنا بها هـذه الـنقوش كأسماء الملوك، وعلاقات القبائل بعضها ببعض، والعلاقات التي كانـت قائمـة بـين بلاد العرب من علاقات تجارية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسـية وغيرها. لهذا فهي تعتبر وثائق واقعية وحقيقية يستند عليها المؤرخ في تأريخـه للأحـداث، كونها معاصرة لتلك الأحداث التي لم تشوهها الروايات أو النقول أو التعليقات.

أمّا الآثار العربية القديمة، فتعتبر سجلاً تاريخياً حياً لأعمال الملوك والأمراء في المراحل المختلفة الباقية من التاريخ الجاهلي، وشاهداً مادياً ماثلاً لحضارة العرب في عصر الجاهلية، لما لهذه البقايا الأثرية من أهمية في إثراء الجانب التاريخي.

وبالنسبة للمصادر العربية المكتوبة، فيعتبر القرآن الكريم هو المصدر الأول لتاريخ العرب في عصر الجاهلية وأصدق المصادر العربية المدونة على الإطلاق، حيث أن فيه ذكر لبعض مظاهر حياة العرب السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية (البكر ١٩٧٨: ٢٣). وفيه ذكر لبعض أخبار الشعوب البائدة، وليس للتأريخ فقط، وجاء ذكرها في النص القرآني لتكون عبرة وعظة، خاصة في حديثه عن القبائل التي استنكرت الأنبياء ورفضتهم، مثل عاد وثمود **﴿كذبت ثمود وعادٌ بالقارعة* فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتية﴾** (قرآن كريم، الحاقة، ٤، ٥، ٦) وغيرهما (سالم ١٩٨٠: ١٩؛ علي ١٩٧٦: ٦٧).

أمّا الحديث الشريف، فهو المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، وبالرغم من كونه مصدر فقهي أكثر منه تاريخي (مهران ١٩٩٤: ١٠٥)، إلا أنه يعتبر أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم لتدوين تاريخ الفترة السابقة للإسلام (البكر ١٩٧٨: ٢٥). والسبب في ذلك أن الحديث يمثل أقدم الروايات الشفوية التي وصلت إلينا عن طريق التدوين، وأدقها لاعتماده على الإسناد، بالإضافة إلى تعرض الأحاديث لنواح عديدة من أحوال الجاهلية ونظم الحياة الدينية، والسياسية والاقتصادية (سالم ١٩٨٠: ١٩؛ علي ١٩٧٦: ٦٧).

وكتب التفسير تحتوي على ثروة تاريخية علمية قيمة في تدوين التاريخ العربي القديم، وتشرح ما جاء مجملاً في القرآن الكريم، وتحكي عن الأيام التي سبقت عصر الإسلام والقبائل العربية البائدة، ولكنها لا تخلو من بعض الشوائب التي تحتاج لشيء من التنقيح والتمحيص والتدقيق لفرز أبرز المعلومات وتصنيفها ودراستها (مهران ١٩٨٠: ٤٤).

وقد دفع اهتمام المسلمين بأقوال الرسول وأفعاله للاهتداء والاعتماد عليه في التشريع الإسلامي عند المؤرخين الأوائل إلى الكتابة في سيرة الرسول، ومغازيه، وفتوحات الصحابة. وقد تعرضت كتب السيرة والمغازي لأخبار الجاهلية القريبة من الإسلام أو المتصلة بحياة النبي والأنبياء السابقين (سالم ١٩٨٠: ١٩؛ مهران ١٩٨٠: ٤٥). كما كانت هذه الكتب تشتمل على الكثير من الشعر الجاهلي الذي كان يستخدمه كتاب السير والمغازي في الاستشهاد على ما يكتبون أو يتحدثون عنه، ولذلك فهي من المصادر الهامة لتاريخ العرب قبل الإسلام (مهران ١٩٩٤: ١١٥).

أمّا المراجع الإسلامية فلا يمكن الاطمئنان إليها، لأنها كانت تنظر إلى تلك الحقبة التاريخية نظرة خاصة لما ساد فيها من تقاليد تعارض ما جاء به الإسلام، ولأن الأخبار التي وردت عنها كانت معظمها روايات شفوية خالية من البيانات المدونة، كما أن الرواة الذين نقلوا تلك الأخبار فعلوا ذلك دون تحكيم النظر والبصيرة (البكر ١٩٧٨: ١). وقد تنبه ابن خلدون إلى ذلك فقال: "... ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب... وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، وعريقة في الوهم والغلط، وأشبه بحديث القصص الموضوعة"، يلاحظ من السياق السابق نظرة المؤرخين للأخبار والروايات نظرة الشك والريبة التي تحتاج لعلاج يبعد عنها ذلك.

وقد أمدنا الأدب الجاهلي شعراً ونثراً بالكثير عن أساليب الحياة في الجاهلية، إلاّ أنه قد ضاع منه الكثير، وتجرأ الكثير على نقل شيء من قائل إلى قائل مما أفقد المعنى والحقيقة (فروخ ١٩٦٤: ١٨). ومعظم ما وصلنا من الشعر الجاهلي إنما كان من عمل البدو وليس من عمل الحضر حصراً، ومن ثم فهو يمثل البادية أكثر مما يمثل الحاضرة. وأيضاً إن أكثر ما روي لنا منه إنما قد عني فيه

بالمختارات أكبر عناية، وهم في هذا ينظرون إليها نظرة الأديب لا نظرة المؤرخ. وأخيراً فالشعر الجاهلي لا يتحدث عن التاريخ السياسي بقدر ما يتحدث عن التاريخ الديني والاجتماعي (مهران ١٩٩٤: ١١٨، ١١٩). إلا في حالات قليلة لا مجال لحصرها في هذا السياق خوفاً من الخروج عن المضمون.

وبالرغم من ذلك، يعتبر الشعر الجاهلي مصدرا مساعدا في معرفة الكثير عن تاريخ العرب، لا سيما ما أثير من شكوك عن هذا الشعر الجاهلي أو جزء منه، وإنكار بعض النقاد المحدثين جميع الشعر الجاهلي أو جزء منه. وهذا في الواقع غلو في النقد، فإننا نستطيع عن طريق معرفة الحياة الجاهلية بما فيها من التفاخر بالأنساب، وطبيعة المعتقدات الدينية والفكرية، وما كان عند العرب من علوم ومعارف لها مباشرة بحياتهم ولا سيما علم الفلك، والأنواء، والجغرافية (البكر ١٩٧٨: ٣٥).

والمصادر غير العربية كالتوراة والتلمود من أقدم المصادر غير العربية لتاريخ العرب قبل الإسلام، والتوراة كلمة عبرية تعني الهداية والإرشاد، وفي الإصطلاح الأسفار الخمسة الأولى (التكوين، الخروج، واللاويون، والعدد، والتثنية)، والتي تُنسب إلى موسى عليه السلام، والتي هي أيضاً جزء من "العهد القديم" وما كتب في التوراة عن العرب يرجع تاريخه إلى ما بين القرن الثامن والقرن الثاني قبل الميلاد. فقد ورد ذكر العرب في مواضع متعددة من أسفار التوراة (مهران ١٩٨٠: ٢٩؛ علي ١٩٧٦: ٥٤) لتفسير الصلات بين العبرانيين والعرب، كسفر المزامير، وسفر عاموس، وسفر دانيال (سالم ١٩٨٠: ٣٩؛ البكر ١٩٧٨: ٣٥).

ولكـــن التوراة عندما تتحدث عن العرب، فهي تتحدث على أساس أنها قـــبائل كانت لها علاقة بالعبرانيين، وتهتم بالعلاقة الاقتصادية والسياسية لهما معاً (مهران ١٩٨٠: ٣٠) وفي الواقع أن التوراة ليست بوثائق تاريخية يمكن الركون إليها، وإنما هي قد تشكلت من واقع تدوينات متعاقبة لأصول من مأثورات قديمة ســبقتها عهداً، وأن المأثور –بوصفه أصلاً قصة محكية تناقلتها ذاكرة الناس جيلاً أثـــر جيل– ليخضع لقوانين غير تلك التي تهيمن على الكلمة، إذ تكتب تسجيلاً للتاريخ (مهران ١٩٩٤: ٧٥، ٧٦).

والتلمود مجموعة شرائع وسنن وتقاليد اليهود، والشروح والتفاسير المدونة فيه لها أهمية كبيرة في تفهم تاريخ الجاهلية لورود إشارات واضحة فيه إلى العرب (البكر ١٩٧٨: ٣٥).

أمّا كتب التاريخ اليونانية واللاتينية والسريانية، فتشمل على ما فيها من تناقضات وأخطاء على معلومات تاريخية وجغرافية هامة عن العرب قبل الإسلام (مهران ١٩٩٤: ٧٩). فقد تعرض كثير من مؤرخي اليونان والرومان الجغرافيين والـــرحالة في مؤلفاتهم لسكان شبه الجزيرة العربية وأحاطوا علماً بأحوالها، لأن هـــذه البلاد تقع على طريقهم إلى الهند والصين، كما كانت تنتج السلع المرغوبة جداً في أسواق الغرب (البكر ١٩٧٨: ٣٦).

ومصـــنفي هـــذه الكـــتب اعتمدوا في تصنيفهم على أخبار زودهم بها المحاربون اليونان والرومان، والرحالة، والبحارة، والتجار، والسياح الذين اختلطوا بقبائل بلاد العرب، أو أقاموا مدة بينهم (سالم ١٩٨٠: ٤١؛ علي١٩٧٦: ٥٦). وتعـــد الإسكندرية من أهم المراكز التي كانت تُعنى عناية خاصة بجمع المعلومات

عن بلاد العرب، وعن عادات سكانها، وما ينتج فيها، لتقديمها إلى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط (مهران ١٩٨٠: ٣٢).

ومن أهم وأقدم من تحدث عن العرب من اليونان هو اسكليوس (Aeschylus) (٥٢٥-٤٥٦ق.م.)، وهيرودوت (Herodut) (٤٨٤-٤٣٠ ق.م)، ديودور الصقلي (Diodorus Siculus) (٤٤ ق.م)، وبلينيوس (Gaus Plinius Secundus) (٢٣-٧٢م)، واسترابون (Strabon) (غلّاب ١٩٨٤: ١٨٩)، وثيوفراست (Theophrastus) (٣٧١-٣٨٧ ق.م)، وايراتوشيتس (Eratothnes) (٢٧٦-٢٩٤ ق.م أو ١٩٦) وغيرهم (البكر ١٩٧٨: ٣٧).

كما تشتمل المصادر التاريخية المسيحية على كثير من أخبار العرب وعلاقتهم باليونان والفرس، وتمتاز هذه المصادر بدقتها من الناحية التاريخية (سالم ١٩٨٠: ٤١). وترجع أهمية هذه الكتابات إلى أنها تؤرخ لانتشار المسيحية في بلاد العرب وللقبائل العربية نفسها، كما أنها تربط الأحداث بالمجامع الكنسية وبتاريخ القديسين، ومن ثم فقد حصلنا على تواريخ ثابتة، الأمر الذي افتقدناه إلى حد كبير في المصادر السابقة ولعل من أشهر الكتابات مؤلفات يوسبيوس (٢٦٤-٣٤٩م) وبروكبيوس المتوفى عام (٥٦٣م) (مهران ١٩٩٤: ٩١، ٩٢).

والمصادر البيزنطية والسريانية ذات شأن كبير في تدوين تاريخ القبائل والممالك العربية قبل الإسلام، ولا سيما تلك التي كانت على صلة بالدولتين البيزنطية والساسانية. كما أن المبشرين المسيحيين الذين انتشروا في أرجاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية لنشر الديانة المسيحية حفظوا لنا مادة غزيرة عن العرب في الفترة التي عاشوها، منهم شمعون الأرشامي (Schemon von Beth Arschm) صاحب رسائل الشهداء الحميريين (البكر ١٩٧٨: ٤٠ و٤١).

ومـــن المـــؤرخين السريانيين الذيـــن ذكروا العرب: ملالا (Malala) المولود حوالي (٤٩١م)، ويوحنا الإفســـي (John of Ephesus) المتوفى في سنة (٥٨٥م)، وثيو فلكاتز (Theophylacths Simocatta) المتوفى سنة (٦٤٠م)، وثـــيوفانس المؤرخ البيزنطي المتوفى سنة (٨١٨م) في ساموس في حولياته (البكر ١٩٧٨: ٤١).

الموقع الجغرافي، البيئة الطبيعية، والأقسام السياسية لشبه الجزيرة العربية

قبل أن نبحث في حضارات العرب، يجب أن نلقي نظرة عاجلة على حدود وتحركات وانتشار هذه المدنية العربية. تقع شبه الجزيرة العربية بين خطي عرض (١٢) و(٣٢) شمالاً، وخط طول (٣٤) و(٥٨) شرقاً، وتبلغ مساحتها أكثر من مليون ميل مربع بقليل (اسماعيل ١٩٩٧: ١٨٨). أمّا أبعادها، فيبلغ طول ساحلها الغربي من رأس خليج العقبة حتى خليج عدن (١٤٠٠) ميل، ويبلغ طول ساحلها الشرقي من رأس الخليج العربي شمالاً حتى رأس الحد جنوباً (١٥٠٠) ميل، أما عرضها في أضيق نطاق بين البحر الأحمر والخليج العربي فهو (٧٥٠) ميل ، وأما بين خليج عمان والبحر الأحمر فيصل الاتساع إلى (١٢٠٠) ميل (مهران ١٩٩٤: ٢٣٣).

وجزيرة العرب عبارة عن شبه جزيرة كبيرة تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من قارة آسيا، وتحيط بها المياه من ثلاث جهات (علي ١٩٧٦: ١٤٠). ففي غربها البحر الأحمر، ويسمى بحر (القلزم) أو (الخليج العربي) (Arabicus Sinus) كما سماه المؤرخون القدامى كبطليموس (الشامي ١٩٧٨: ٧؛ معروف ١٩٧٥: ٧٣) والبحر الأبيض المتوسط. وفي شرقها بحر عُمان والخليج العربي، وفي جنوبها البحر العربي، ومن الشمال أعالي سوريا والعراق[1] (الفاسي ١٩٩٣:

---

(1) اختلف جغرافيو العرب في تعيين الحدود الشمالية لبلاد العرب، وهذا الاختلاف وقع فيه المؤرخون اليونانيون القدماء أيضاً، وهذا راجع إلى اختلاف المناطق التي يسكنها العرب باختلاف الدول والعصور (البكر ١٩٧٨: ٥٩).

٣٩؛ عاقــل ١٩٨٨: ١٤؛ معروف ١٩٧٥؛ ٧٥). وتختلف حدودها الشمالية عند الجغرافيين والمؤرخين باختلاف الدول والأزمنة (الفاسي ١٩٩٣: ٣٩).

وقد أطلق جغرافيو العرب على هذه البلاد اسم الجزيرة أو جزيرة العرب، وعللــوا هذه التسمية بأن مياه البحار تحيط بها من ثلاث جهات، كما تحيط بها مياه دجلة والفرات من الجهة الرابعة في الشمال، فأصبحت مثل جزيرة من جزر البحر (الشامي ١٩٧٨: ٨).

وإذا ألقيــنا نظرة عامة على خارطة جزيرة العرب (شكل ٦)، نرى أنها أرضٌ مــرتفعة في الغـــرب تســـيطر على السواحل الضيقة وتكون سلاسل من المـــرتفعات متصـــلاً بعضـــها ببعض تمتد من بلاد الشام إلى اليمن، ويقال لهذه المرتفعات جبال السراة (علي ١٩٧٦: ١٤٤). ويصل أقصى ارتفاع لها في إقليم مدين شمالاً (٩٠٠٠) قدم، وفي الحجاز إلى (١٠٠٠) قدم، بينما يصل جبل النبي شـــعيب وهو أقصى مرتفعاتها في اليمن إلى (١٢٣٠٠٠) قـــدم (البكر ١٩٧٨: ٦٥). وتكون سلسلة جبال السراة العمود الفقري لجزيرة العرب، وتتصل فقراته بسلســـلة جـــبال بلاد الشام المشرفة على البادية، المتحكمة فيها تحكم الجنود في القلاع (علي ١٩٧٦؛ ١٥٦).

وهناك أيضاً الهضاب والصحارى والدارات وهي –سهول رملية مستديرة بين التلال تستقر تحت سطحها المياه، ومنها بادية الشام وبراري العراق- (عاقل ١٩٨٨: ١٦؛ حتي وآخرون ١٩٨٦: ٤١). وللدارات أهمية خاصة عند العرب، وذلك لأنهم اتخذوها منازل لهم لاتصافها بصفات ملائمة لبناء الخيم، وذلك لأنها ســـهلة لمبارك الإبل، ولمرابض الخيل، ولجلوس القوم، ثم هي مرتفعة عن مجاري

السيول محاطة بتلال أو جبال تحمي من الرياح في الغالب، ولخصوبة أرضها فهي مرتع للغنم والبهائم، وملعب للصبية (البكر ١٩٧٨: ٦٤).

ولبعض هذه الدارات شهرة، إذ وردت أسماؤها في الشعر الجاهلي والإسلامي، مثل دارة جلجل، ودارة الأرام التي كانت مملوءة بشقائق النعمان كما جاء في شعر المازني (علي ١٩٧٦: ١٥٦). ويضيق المجال هنا عن ذكر هذه الأشعار التي تغنت بمثل هذه الدارات خوفاً من الخروج عن السياق ويهدف إلى سياقات أخرى.

أمّا الأرض الصحراوية فقد تميز فيها ثلاثة أنواع:

أولاً: النفوذ: وهي الصحراء المسماة "بادية السماوة"، أمّا النفوذ فاسم لم يكن يعرفه العرب قديماً. وتبلغ مساحتها نصف مليون كم٢ تقريباً، وهي قفار متسعة ذات رمال بيضاء أو محمرة تسفيها الرياح فتجعل منها كثباناً أو تلالاً تغطي جزءاً كبيراً من شمالي الجزيرة العربية (مهران ١٩٩٤: ٢٥٠؛ عاقل ١٩٨٨: ١٨؛ حتي وآخرون ١٩٨٦: ٤٣)، حيث يبلغ ارتفاع بعضها من (٣٠٠-٥٠٠) قدم (الشامي ١٩٨٧: ١٤).

وتعد النفوذ من الأماكن المائلة أو المنحدرة، ويظهر من الارتفاعات أن مستوى المنطقة الشرقية من النفوذ أوطأ من مستوى المنطقة الغربية عند خط طول (٢٧) درجة و(٣٠) دقيقة بما يزيد على (١٥٠) متراً، أي أن هذه البادية مرتفعة في الغرب آخذة في الانخفاض والميل في الشرق (علي ١٩٧٦: ١٥٢). وتكثر المراعي في فصلي الشتاء والربيع في النفوذ، وتأتي القبائل إليه في هذين الفصلين

وتتجنبه في فصلي الصيف والخريف (البكر ١٩٧٨: ٦١). ويغلب نزول المطر في أواسط شهر تشرين الثاني بعد هبوب الرياح الشرقية (الشامي ١٩٧٨: ١٤).

ثانياً: الدهناء: تبلغ مساحتها نصف مليون كم٢ تقريباً، وهي أرض رملية حمراء متوسط ارتفاعها من (٤٠٠-٥٠٠) متر عن سطح البحر، وتخترق الطريق الموصل بين الإحساء والرياض (الشامي ١٩٧٨: ١٥، ١٦) وتمتد من النفوذ شمالاً إلى الربع الخالي جنوباً (علي ١٩٧٦: ١٥٠). ويُعرف الجزء الغربي من الدهناء باسم الأحقاف، وهي منطقة واسعة من الرمال بها كثبان مستطيلة الشكل (البكر ١٩٧٨: ٦١)، أمّا الأقسام الجنوبية منها فتُعرف بالربع الخالي (عاقل ١٩٨٨: ١٧؛ حتي وآخرون ١٩٨٦: ٤٣).

وقد هجر الناس السكنى في أكثر أقسام الدهناء لجفاف أكثر أقسام هذه المنطقة الصحراوية الواسعة، وخلوها من المراعي، ولكثرة هبوب العواصف الرملية فيها، ولشدة حرارتها، وأقاموا في الأمكنة المرتفعة منها التي تتوافر فيها المياه، وتتساقط عليها الأمطار فتنبت الأعشاب وينتجعها الأعراب (علي ١٩٧٦: ١٥٠). وتعتبر الدهناء امتداداً للنفوذ الكبير، وهي مجموعة من النفوذات تسمى بأماكنها مثل نفوذ شقرا، ونفوذ البطرا، ونفوذ قنيفذة، ونفوذ السرا (الشامي ١٩٧٨: ١٥).

ثالثاً: الحرة: وهي أرض من الحجارة الرملية تعلو سطحها حمم البراكين القديمة الخفانية النخرة (عاقل ١٩٨٨: ١٨؛ حتي وآخرون ١٩٨٦: ٤٣)، والحرة عادة مستطيلة الشكل، فإذا كان فيها شيء مستطيل غير واسع فذلك الكراع واللابة (Lava) وهي الصخور البركانية. وتكثر الحرار في الأقسام الغربية من جزيرة العرب، وتمتد حتى تتصل بالحرار في بلاد الشام في منطقة حوران، ولا سيما في

الصفاة، وتوجد في المناطق الوسطى والمناطق الشرقية الجنوبية من نجد حيث تتجه نحو الشرق، والمناطق الجنوبية والجنوبية الغربية (علي ١٩٧٦: ١٤٧).

ويذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان ما لا يقل عن ثلاثين حرّة، أشهرها حرة المدينة (الحموي، البلدان، حرف ح)، وذكر ابن الفقيه أيضاً أن في بلاد العرب ثمانية حرار: حرّة بني سليم، وحرة لفلف، وحرّة بني هلال، وحرّة النار، وحرّة ليلى، وحرّة راجل، وحرّة واقم، وحرّة ضرغد. ولعل من أهم الحرّات: حرّة العويرض التي تقع غرب درب الحاج الممتد من تبوك إلى العلا، ويبلغ طولها أكثر من مائة ميل بعرض يكاد يقرب من ذلك، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر حوالي خمسة آلاف قدم (مهران ١٩٩٤: ٢٤٧).

ليس في جزيرة العرب أنهار كبيرة بالمعنى المعروف من لفظة نهر، مثل نهر دجلة أو الفرات، بل فيها أنهار صغيرة أو جعافر، وهي لذلك تُعد في جملة الأرضين التي تقل فيها الأنهار والبحيرات، وفي جملة البلاد التي يتغلب عليها الجفاف (علي ١٩٧٦: ١٥٧) ويقل فيها سقوط الأمطار، ومن ثم فقد أصبحت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان، مما انعكس على التواجد البشري فيها.

أمّا الوديان فإن بعض أجزائها في الجنوب تظل ممتلئة بالماء طوال السنة، وذلك بسبب وقوعها في منطقة الرياح الموسمية التي تجلب الأمطار الموسمية الغزيرة، كوادي السرحان، ووادي الحمض، ووادي الخارد (عاقل ١٩٨٨: ٢١). وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كثيراً من أودية شبه الجزيرة كانت أنهاراً في يوم ما، بسبب وجود ترسبات في هذه الأودية من النوع الذي يتكون عادة في قيعان الأنهار، ومنها ما عُثر عليه من عاديات وآثار سكن على حافة الأودية (مهران ١٩٩٤: ٢٥٢). فقد ورد في كتب اليونان والرومان أسماء لأنهر طويلة في بلاد

العرب، كنهر (كورس) الذي ذكره هيرودتس وقال عنه أنه من الأنهر العظيمة، وأنه كان يصب في بحر الأرتيريا (الأحمر). ونهر (لار) ذكره بطليموس وزعم أنه ينبع من منطقة نجران، ثم يسير نحو الجهة الشرقية مخترقاً بلاد العرب حيث يصب في الخليج العربي، ولا يُعرف من أمر هذا النهر شيء في الوقت الحاضر (البكر ١٩٧٨: ٦٦). ويرى مورتز أنه وادي الدواسر الذي يمس حافة الربع الخالي عند نقطة تبعد خمسين ميلاً من جنوب شرق السليل (مهران ١٩٩٤: ٢٥٢).

المنــاخ:

أمّا مناخ الجزيرة العربية فهو قاري، أي حار صيفاً وبارد شتاء، والأمطار فيها قليلة، والمياه متوفرة في أغلب نواحي الجزيرة العربية، وقد ساعدت هذه المياه على السكنى، وعلى الزراعة، ونشوء المدن والحضارات (الفاسي ١٩٩٣: ٣٩). ولكن الجفاف هو الصفة الغالبة على جو جزيرة العرب، فالأمطار قليلة، والرطوبة منخفضة في الداخل إلا في التهائم والسواحل فإنها ترتفع فيها (علي ١٩٧٦: ٢١٥).

النباتات:

وبالنسبة لنبات الجزيرة، فإن جفاف الهواء وملوحة التربة يحولان دون نمو النباتات وازدهارها (حتي وآخرون ١٩٨٦: ٤٦)، ومع ذلك فهناك نباتات تآلفت مع المناطق الحارة الرطبة، وأعشاب عاشت على المستنقعات وفي الأرض الرطبة، وحشائش وقصب وغيرها (علي ١٩٧٦: ٢١٣). ويكثر النخيل في الحجاز، حيث أن له فوائد كبيرة، فقد كان التمر والحليب أساس الطعام عند

الـبدو (البكر ١٩٧٨: ٩٠)، فأصبحت هذه الشجرة سيدة الأشجار عموماً، لا عـند العرب وحدهم بل عند قدماء الساميين أيضاً، وكانت تُشكل ثروة ورأس مال يدر على صاحبه ربحاً وافراً نظراً لما تنتجه هذه الأشجار من ثمار وهي على أنواع متعددة (علي ١٩٧٦: ٢٠٧).

كـان القمح والشعير والذرة يزرع في اليمن وفي بعض الواحات (حتي وآخرون ١٩٨٦: ٤٦؛ البكر ١٩٧٨: ٨٩)، وانحصرت زراعة الحبوب والبقول في الأمـاكن التي تتوافر فيها المياه أو تتساقط عليها الأمطار، فنجدها في الحجاز واليمن ونجد (علي ١٩٧٦: ٢١٠).

ولا يـزال شجر اللُّبان يزدهر على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي، لا سيما في مهرة (البكر ١٩٧٨: ٨٩). حيث يذكر ياقوت الحموي: "أن اللبان لا يـوجد في الدنـيا إلا في جبال ظفار ... وأنه شجر ينبت في تلك المواضيع... ويجتنـيه أهـل تلك البادية، وذلك أنهم يجيئون إلى شجرته ويجرحونها بالسكين، فيسـيل اللـبان مـنه علـى الأرض، ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار" (الحموي، معجـم: حـرف ظ). ويشـير بلينـيوس أيضـاً في كتابه (التاريخ الطبيعي) (Historia Naturalis) إلى الشـعائر الدينـية الـتي كانت تلازم معالجة لحاء الأشـجار لاستخراج اللبان، وتكاليف هذه الشعائر، ونصيب رجال الدين من المحصـول، والضريبة التي يحصلها الملك على المحصول، فضلاً عن نصيب الحاشية والموظفين والحراس (مهران ١٩٩٤: ٨٩).

وقـد كان لشجر اللبان أهمية واضحة في الحياة التجارية الأولى في البلاد العربية الجنوبية (حتي وآخرون ١٩٨٦: ٤٦)، فقد كان البخور واللبان — بترول العـالم في ذلك الزمان — وكانت مصدر رخائها، ومصدر تنافس الدول الكبرى

علـــيها سابقاً (علي ١٩٦٧: ٢١٠). ومما يدل على ذلك، ما أورده هيردوت في الكـــتاب الـــثالث فقرة ٩٧: "أن العرب كانوا بين الشعوب التي لم تدفع جزية للملـــك الفارسي، وأنهم يقدمون عوضاً عنها هدية قدرها ألف تالنت من اللبان كـــل عـــام" (عبدالعليم ١٩٨٤: ٢١١)، ولكن زالت أهميتها بالتدريج، وذهب سحرها بتبدل الأيام.

وهناك الصمغ العربي، وشجرة البن التي أُدخلت زراعتها من بلاد الحبشة في القـــرن الـــرابع عشر الميلادي (البكر ١٩٧٨: ٩٠)، ومن الفواكه: التفاح، والمشـــمش، واللوز، والرمان، والبرتقال، والبطيخ، وقصب السكر، ويرجح أن الأنـــباط هم الذين أدخلوا هذه الفواكه إلى الجزيرة من الشمال (عاقل ١٩٨٨: ٢٣؛ حتي وآخرون ١٩٨٦: ٤٦؛ علي ١٩٧٦: ٢٠٨).

الحيوانات:

أمّا مملكة الحيوان في جزيرة العرب فليست مملكة ضخمة عظيمة، بسبب جـــو الجزيرة العربية (علي ١٩٧٦: ١٩٦). ولكن عاشت بعض الحيوانات منها الجمـــل، الذي يعتبر من أقدم الحيوانات التي سمعنا بها عند العرب، إذ اقترن اسم العـــرب مع الجمل، وهذا ما صورته لنا الرقم الطينية الآشورية عند ذكر المعارك الـــتي وقعت بين العرب والآشوريين (البكر ١٩٧٨: ٩٣)، وعاشت الخيل أيضاً التي أصبحت أهم سلاح لنجاح الغزو. ومن أشهر الحيوانات البرية التي عاشت في الجزيرة العربية: ابن آوى، والوعل، واليربوع، وبقر الوحش، والخنزير، والأرنب، وجـــاء أيضـــاً ذكر الأسد في الآداب العربية القديمة (البكر ١٩٧٨: ٩١). ومن

الطـــيور: الـــنعام، والقطـــا، والحجل، والكروان، والغراب، والبجع، والهدهد، والنسر، والحدأة وغيرها (مهران ١٩٩٤: ٢٧٢).

الخامات الطبيعية:

ولئن كان اللبان والطيب أفخر الحاصلات التي اشتهرت بها البلاد، فثروتها المعدنـــية لم تقـــل عن تلك قيمة، وأخص معادنها الذهب. وكانت مناجمة على ساحل الجزيرة الغربي بين مِدْين واليمن، وفي أواسط الجزيرة أيضاً (حتي وآخرون ١٩٨٦: ٧٩).

وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء ومواضع عُرفت بوجود خام الذهب بها مـــثل: موضع "بيشة" أو "بيش"، و"ضنكان" (علي ١٩٧٦: ١٩٢)، والمنطقة ما بين "القنفذة" و"مرسى حلج"، وعلى مقربة من "حمضة" (مهران ١٩٩٤: ٢٦٢-٦٣).

وقـــد بين ديودورس أن الجزيرة غنية بمناجم الذهب، الذي بلغت نقاوته حـــداً لم تعـــد معه حاجة إلى تصفيته بواسطة الصهر. وقد أفرد جغرافياً العرب المشهوران — المقدسي والهمذاني (القرن العاشر للميلاد) — فقرة كاملة في كل من كتابـــيهما، أتيا فيهما على وصف معادن الجزيرة وتقرير ما فيها من ذهب (حتي وآخـــرون ١٩٨٦: ٧٩). وذكـــر ياقوت أيضاً في معجم البلدان بعض مناجم الـــذهب في الـــيمن واليمامة والبحرين (الحموي، معجم، حروف متعددة). أمّا الفضة، فقد وجدت مناجم قديمة لها شرقي "القنفذة"، وعند منتصف المسافة بين "وادي قيـــنونة" و"وادي بنا". وعثر أيضاً على خامات الرصاص والزنك شرقي

"القـــنفذة"، ومناجم الحديد في "وادي فاطمة"، و"صعدة"، و"نقم"، و"غمدان" (مهران ١٩٩٤: ٢٦٣، ٢٦٤).

الأقسام السياسية والطبيعية:

لقـــد قسم اليونان والرومان بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام طبيعية تتفق مع الناحية السياسية التي كانت عليها بلاد العرب في القـــرن الأول الميلادي وهي: ١- بـــلاد العـــرب الصخرية (Arabia Petrae) أو (Arabia Petrac)، ٢- وبلاد العرب السعيدة (Arabia Felix)، ٣- بلاد العرب الصحراوية (Arabia Deserta) (عاقـــل ١٩٨٨: ٢٤؛ حتي وآخرون ١٩٨٦: ٧٥؛ غلاّب ١٩٨٤: ١٨٩؛ ســـالم ١٩٨٠: ٦٦؛ علـــي ١٩٧٦: ١٦٣). إن بلاد العرب الحجرية (Arabia Petrae) تشمل الأرض التي كان يسكن فيها الأنباط، والتي خضعت لـــنفوذ الرومان والبيزنطيين (غلاب ١٩٨٤: ١٨٩؛ سالم ١٩٨٠: ٦٦؛ البكر ١٩٧٨: ٦٩؛ علي ١٩٧٦: ١٦٦). ويُطلق ذلك الاسم -أي العربية الصخرية- على شبه جزيرة سيناء، وعلى المملكة النبطية، وعاصمتها البتراء. وقد كانت هذه المنطقة تتوسع وتتقلص بحسب الظروف السياسية، وبحسب مقدرة العرب (علي ١٩٧٦: ١٦٦).

أمّا بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) فالمقصود بها بلاد اليمن، أو الأرض الخضراء (Khalidi 1956: 196)، وأُطلقت عليها هذه الصفة — الأرض الخضراء- لوفرة محاصيلها وتنوعها، ولاعتدال مناخها (اسماعيل ١٩٩٧: ١٨٩)، ونتـــيجة لهـــذه الظـــروف الملائمة فقد قامت في تلك المنطقة مجتمعات سياسية مستقرة، ويختلف الأخباريون في سبب تسميتها باليمن، ولكن الأرجح ما ذكره

ياقـــوت، وابـــن الكلبي، والقلقشندي وغيرهم عن ابن عباس: "تفرقت العرب فتيامنوا إلى اليمن فسميت بذلك" (الشامي ١٩٧٨: ١٩). والعربية السعيدة أكبر الأقسام الثلاثة رقعة، وتشمل في رأي جواد علي كل المناطق التي يقال لها جزيرة العرب في الكتب العربية كما يفهم من بعض المؤلفات، وليست لها حدود شمالية ثابتة لأنها كانت تتبدل على حساب الأوضاع السياسية (علي ١٩٧٦؛ ١٦٤). ويذكر سترابون أن بلاد العرب السعيدة كانت أول أمرها داراً للأنباط والسبئين الذين كثيراً ما أغاروا على سوريا قبل أن يحكمها الرومان (البكر ١٩٧٨: ٦٩).

أمّا بلاد العرب الصحراوية (Arabia Deserta) التي كان يسيطر عليها الفـــرثيون (غـــلاب ١٩٨٤: ١٨٩) فقد كانت تطلق على بادية الشام (البكر ١٩٧٨: ٦٩)، ثم شمـــل اسمهـــا البادية الواسعة والمناطق الصحراوية التي كانت تسكنها القبائل المتبدية في شبه جزيرة العرب كلها (سالم ١٩٨٠: ٦٦). وكانت البادية أو العربية الصحراوية مأهولة بالقبائل العربية التي سكنتها قبل الميلاد بمئات الســـنين، ولـــيس لدينا –مع الأسف– نصوص كتابية قديمة أقدم من النصوص الآشورية التي كانت أول نصوص أشارت إلى العرب في هذه المنطقة، وذكرت أنه كانـــت لديهم حكومات يحكمها ملوك. وأقدم هذه النصوص، هو النص الذي يعود تاريخه إلى سنة (٨٥٤ق.م) (علي ١٩٧٦: ١٦٥).

وقـــد قسم الجغرافيون العرب شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام كبرى هي: ١– تهامة: وتشمل المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لشاطئ البحر الأحمر من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً، ٢– نجد: الذي يمثل الهضبة الوسطى في شبه الجزيرة العربية، ٣– الحجاز: ويمتد بين نجد وسهل تهامة، ٤– العروض: وتشمل أراضي الـــيمامة والبحرين وما يليهما، ٥– واليمن: وتشمل منطقة واسعة تمتد من أقاليم تهامة إلى العروض (مهران ١٩٩٤: ٢٣٨–٤٣؛ علي ١٩٧٦: ١٧٠–٨٥).

ومن الجدير بالذكر، أن بطليموس رسم خريطة أودعها كتابه المعروف في الجغـرافية (Geographiki Hyphegesis)، وقـد ظهرت فيها أقطار العالم المستمدن (١٥٠-١٦٠م) (البكـر ١٩٧٨: ٤٠)، وبقيت هذه الخارطة طيلة القـرون التالـية مصدراً أخذ به الدارسون في مسائل الجغرافية (حتي وآخرون ١٩٨٦: ٨٠؛ غـلاب ١٩٨٤: ١٨٩). ولقد استقى بطليموس موادها مما رواه التجار وأهل الأسفار في ذلك العصر، فوعت مشاهداتهم وتأثراتهم (حتي وآخرون ١٩٨٦؛ ٨٠)، وتعتبر هذه الخريطة أدق خريطة وضعت في العصر القديم، ومن ثم فقد ظلت هي الخريطة المستخدمة حتى بداية العصور الحديثة.

وإذا أردنا أن ندرك أهمية شبه جزيرة العرب التجارية، علينا أن ننظر إلى خريطة العالم القديم. فإننا سنرى نطاقاً صحراوياً عريضاً يمتد من المحيط الأطلنطي حـتى حـدود الصين الغربية ويفصل بين إقليمين غنيين كبيرين هما إقليم البحر المتوسـط والإقلـيم الموسمي. غير أن العناية الإلهية كسرت حدة عقبة الصحراء الكئود، بشق ذراعين مائيين كبيرين يتجهان من الشمال إلى الجنوب، هما الخليج العربي والبحر الأحمر، ومع الوضع الطبيعي لتوزيع الماء واليابس هذا، وموقع شبه جزيـرة العرب بين الخليج العربي والبحر الأحمر، جعل شبه الجزيرة على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، بل جعلها هذا الموقع جزءاً منها غير أن قلب الجزيـرة العـربية قفار مجدبة أو سهوب قليلة المرعى، ولم تلعب دوراً يذكر في النشاط التجاري، واقتصر دورها على كونها ممراً للتجارة عن طريق البحر الأحمر، وظهـيرة أرض الحجاز من ناحية، أو عن طريق الخليج العربي من ناحية أخرى (غلاب ١٩٨٤: ١٩٠).

وهـذا الاخـتلاف في الأصقاع والطبيعة، أدى إلى اختلاف الأقطار في تصـديرها للبضـائع والمـواد التي تنتجها. فعُرفت اليمن مثلاً بالدرس والعقيق

والـــبرود، وعرفت الشام بالرياط، ومصر بالأردية، واشتهرت الطائف بالجلود، والدباغة، والخمرة (الرشيد ١٩٨٤: ٢١٦).

فهذه البضائع والمنتجات كانت تجوب بها القوافل التجارية مناطق مختلفة لغايـــات التبادل التجاري النشط آنذاك والذي كانت تحكمه شبكة طرق رئيسة وفـــرعية تخـــدم حركة هذه القوافل التجارية. مما ينعكس على اقتصاديات شبه الجزيرة العربية وقبائلها.

لفظة العرب: مدلولها وتطورها التاريخي:

وردت لفظة "عرب" عدة مرات في الوثائق الآشورية والبابلية منذ القرن الثامن قبل الميلادي في صيغ متعددة منها: (Aribi)، و(Urbi)، و(Arbi) (سالم ١٩٨٠: ٢٤٣) و(Aribu)، و (Arubu) و (Arub) (علي ١٩٧٦: ١٦) .بمعنى البادية الواقعة إلى الغرب من بلاد الرافدين، وهي بادية العراق (سالم١٩٨٠: ٤٣؛ علي ١٩٧٦: ١٧). فقد وردت في إحدى الكتابات البابلية جملة "ماتورابي" (Matu Arabaai) (Matu A-Ra-Bi) ومعنى "ماتو" أرض، فيكون المعنى "أرض عربي"، أي "أرض العرب"، أو "بلاد العرب"، أو "العربية" (علي ١٩٧٦: ١٧).

ووجد المستشرقون والعلماء المحدثون أن أقدم نص وجدت فيه لفظة عرب نص آشوري يعود لسنة (٨٥٣ق.م)، منذ أيام الملك "شلمنصر الثاني أو الثالث" ملك آشور (عاقل ١٩٨٨: ٤٢؛ علي ١٩٧٦: ١٦). حيث يقرأ في النص أن الملك "شلمنصر الثالث" استطاع بفضل جيشه القوي أن يقمع فتنة قامت ضده، وكان من بين المشتركين فيها "جند يبو العربي" (عاقل١٩٨٨: ٤٢؛ يحيى ١٩٨٤: ٩٢). وقد قصد بكلمة "عرب" هنا بداوة ومشيخة كانت تحكم في أيامهم البادية، تمييزاً لها عن قبائل أخرى كانت مستقرة في تخوم البادية (علي ١٩٧٦؛ ١٦)، ومنذ ذلك الحين وحتى القرن السادس قبل الميلاد، يتتالى ذكر العرب في النقوش الآشورية والبابلية. مما يشكل دلالة تاريخية هامة بخصوص العرب وذكرهم في النصوص القديمة.

وفي الفتــرة عينها، يرد في أسفار العهد القديم أن "العرب" اشتركوا مع الفلســطينيين في الهجوم على مملكة "يهوذا" على عهد ملكها "يورام" (٨٥١-٨٤٣ق.م)، وقــد بلغ عنف هذا الهجوم أن فتحوا المملكة، وهاجموا قصر الملك، وســبوا نساءه، وأسروا كل أبنائه فيما عدا واحد منهم، ونهبوا كل أمواله (يحيى ١٩٨٤: ٩٣).

كما جاء ذكر العرب في عهد الملك "تغلا تبلاسر الثالث" (٧٤٥-٧٢٧ ق.م)، إذ دفعت ملكة عربية اسمها "زبيبي" -وهو تحريف لاسم زبيبة- الجزية إلى هذا الملك، وكانت تحكم "أربي" أي العرب، وربما كان ذلك في السنة الثالثة من حكمه (البكر ١٩٧٨: ١٦). أمّا في السنة التاسعة من ملكه، فقد أخبرنا أنه قهر ملكــة عــربية اسمهــا "سمسي" أو "شمســي" واضطرها إلى دفع الجزية (البكر ١٩٧٨: ١٦).

ذكــرت الكتابات المسمارية في العهد الكلداني لفظة العرب، ففي عهد الملك الكلداني "نبونيد" (٥٥٥-٥٣٨ ق.م) جهّز في السنة الثالثة من حكمه حملة على "أدمو" (دومة الجندل)، ومنها سار إلى تيماء يرافقه جيش "أكد"، ولما وصل إليها فتك بأميرها، وأعمل السيف بأهلها (البكر ١٩٧٨: ٢١).

وظهــرت لفظة (Arabaya) أيضاً فيما يقرب من سنة (٥٣٠ق.م) في النصوص الفارسي المكتوبة بالأخمانية بمعنى البادية الفاصلة بين العراق والشام، بما فيها شبه جزيرة سيناء (علي ١٩٧٦: ١٧).

كذلك وردت اللفظة في الأسفار القديمة من التوراة بمعنى البدو. ففي كل المواضــع التي وردت فيها في سفر "أشعياء (Isaiah) مثلاً، نرى أنها استعملت بمعنى بداوة واعرابية (علي ١٩٧٦: ١٨). أمّا التلمود فقد قصدت بلفظة "عرب"

و"عــــربيم" ('Arbi'im) "الأعـــراب" كــذلك، أي المعنى نفسه الذي ورد في الأسفار القديمة (علي ١٩٧٦: ٢١).

وأصبح هذا اللفظ مألوفاً فيما بعد ذلك عند جميع كتاب اليونان، حيث أخـــذوا يذكــرون لفظـــة "عـــرب" في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد (سالم ١٩٨٠: ٤٤). وبالتحديد، أول من ذكر العرب من اليونان هو "أسكيلوس" أو "أخيلوس" (Aeschylus) (٥٢٥-٤٥٦ق.م) من أهل الأخبار منهم، ذكرهم في كلامـــه على جيش "أحشويرش" (Xerxes)، وقد أطلق لفظة (Arabae) على بلاد العرب، والبادية، وجزيرة العرب، والأرضين الواقعة إلى الشرق من نهر النيل (علي ١٩٧٦: ٢١).

ولم ترد لفظة "عرب" في المصادر العربية الأثرية إلا متأخراً، فقد جاءت في الـــنقوش السبئية المتأخرة التي لا يرجع تاريخها إلى أبعد من القرن الأول قبل الميلاد (سالم ١٩٨٠: ٤٤)، ولكنها وردت في هذه النقوش بمعنى "الأعراب"، في حـــين كـــان أهـــل المدن يُعرفون بمدنهم أو بقبائلهم (سالم ١٩٨٠: ٤٤؛ علي ١٩٧٦: ٢٣).

كـــذلك ورد اللفظ في نقش شاهد النمارة الذي يعود للقرن الرابع قبل الميلاد، والمكتوب بالآرامية النبطية (الشامي ١٩٧٨: ٢٤)، حيث يقول النقش: "هذا جثمان أمرؤ القيس بن عمرو، ملك العرب جميعاً، الذي عقد التاج وملك قبـــيلتي أسد ونزار وملوكهم." (مهران ١٩٩٤: ٦٢). وورد أيضاً في نص أبرهة –نائب الحبشة على اليمن– لفظة "أعرب" بمعنى "أعراب" (علي ١٩٧٦: ٢٣).

ويـــرى فـــريق مـــن العلمـــاء أن كلمـــة "عـــرب" ذات صلة بكلمة (A,ra'abh'a) "عـــرابا" العـــبرية التي تعني "الأرض المظلمة" أو "السهوب"، أو

بكلمـــة (Erebh) "عيريب" العبرية أيضاً التي تدل على الحياة "الفوضى" أو "غير المنظمة" (عاقل ١٩٨٨: ٤٢؛ الشامي ١٩٧٨: ٢٤).

كما نلاحظ، فقد اختلفت الأقوال في كلمة العرب وأصل تسميتهم بها. فقال ابن منظور: "العُرب والعَرب جيل من الناس معروف، خلاف العجم، وهما واحـــد مثل العُجم والعَجم"، وقال الجوهري: "العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصـــار، والأعـــراب ســـكان البادية، والنسبة إلى العرب عربي والى الإعراب أعـــرابي، والتحقـــيق إطـــلاق لفظ العرب على الجميع، وأن الأعراب نوع من العرب". أمّا ابن خلدون فيرى أن لفظة العرب مشتق من الأعراب، وهو البيان، أخـــذاً مـــن أقوالهم أعرب الرجل عن حاجته إذا أبان بذلك، لأن الغالب عليهم البيان والبلاغة.

ولكـــن في الواقع لا يُعرف على وجه الدقة متى استعملت لفظة "عرب" للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس العربي، والقرآن الكريم هو أول مصدر ورد فيه لفظ العرب للتعبير بوضوح عن هذا المعنى، حيث وردت فيه صيغتا "أعراب" و "عـــرب"، وجاءت فيه لفظة "أعراب" عشر مرات، كما وردت لفظة "عربي" إحدى عشرة مرة (سالم ١٩٨٠: ٤٥). وبمعنى آخر إن القرآن الكريم هو الذي خصص الكلمة، وجعلها عَلماً لقومية تشمل جميع العرب.

طبقات العرب:

تقسم العرب إلى طبقات من ناحية القدم والتقدم في العربية وهو تقسيم لا نجد له ذكراً لا في التوراة أو الموارد اليهودية الأخرى، ولا في الموارد اليونانية، أو اللاتينية، أو السريانية (مهران ١٩٩٤: ٢٩٤). ويظهر أنه تقسيم عربي خالص، نشأ من الجمع بين العرب الذين ذُكر أنهم بادوا قبل الإسلام وبين العرب الباقين (البكر ١٩٧٨: ١١٤؛ علي ١٩٧٦: ٢٩٥).

فيكاد الرواة والاخباريون يتفقون على أن العرب ينقسمون إلى ثلاث طبقات: العرب البائدة، العرب العاربة، والعرب المستعربة أو المتعربة[1] (حتي وآخرون ١٩٨٦: ٦٠؛ سالم ١٩٨٠: ٤٨؛ البكر ١٩٧٨: ١١٣؛ علي ١٩٧٦: ٢٩٤).

١. **العرب البائدة**: الشعوب العربية القديمة التي كانت تعيش في جزيرة العرب (سالم ١٩٨٠: ٤٨)، ثم بادت و لم يبق من آثارهم شيء إلا ما ذكره القرآن الكريم والأخبار العربية النقلية. وقد دُرست أخبارهم بعاملين: الرمل الزاحف الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة وفي الأحقاف، وهياج البراكين وما ترتب عليه من تدمير المدن (فروخ ١٩٦٤: ٤٥). ومن قبائل العرب البائدة: عاد، وثمود، وطَسم، وجَديس الأولى (معروف ١٩٧٥: ٧٨)، وأميم وجاسم، وعبيل،

---

(1) يقسم ابن خلدون العرب –طبقاً للتسلسل التاريخي– إلى طبقات أربعة، فهم عرب عارية قد بادت، ثم متعربة وهم القحطانيون، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج، ثم الغساسنة والمناذرة، وأخيراً العرب المستعجمة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلامية (مهران ١٩٩٤: ٢٩٤).

والعمالقـــة، وحضـــورا (علي ١٩٧٦: ٢٩٥)، والموذ، والسلف (البكر ١٩٧٨: ١١٤).

٢. **أمّا العرب العاربة:** فهم الراسخون في العروبية والمتبدعون لها، بما كانوا أول أحـــيالها. وينقســـمون إلى "قحطان" أو "يقطن" الذي ورد اسمه في الـــتوراة (سالم ١٩٨٠: ٤٨، ٤٩)، والذي اختلف النسابون في أنه من ذرية اسماعيل بن إبراهيم أم أنه من ذرية سام بن نوح، ويكاد الرأي يجمع علـــى أنه من ولد سام (الشامي ١٩٧٨: ٢٧). وقد سكن القحطانيون الـــيمن وحضرموت، وكانوا على جانب من الاستقرار والتحضر، فقد عـــرفوا شـــيئاً من الزراعة والتجارة والصناعات اليدوية البسيطة، وورد ذكرهم في كتابات سترابون. وورد في جغرافية بطليموس اسم قريب من قحطـــان هو (Katanitne)، ولربما يكون هذا اسماً لموضع لا علاقة له "بقحطان". كما ورد في نصوص المسند قبيلة عرفت بقبيلة "قحطن"، إذ لا يســـتبعد أن يكون لأسمها علاقة "بقحطان" (البكر ١٩٧٨: ١٣٦). ومـــن أهم القبائل العربية في الجنوب (القحطانية): "جرهم"، و"يعرب" (الشامي ١٩٧٨: ٢٨).

٣. **وأما العرب المستعربة، فيُنسبون إلى عدنان ابن أدد.** وقد سموا بالعرب المستعربة لأن اسماعيل عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية أو السريانية، فلمـــا صاهر اليمنية تعلم العربيـــة (سالم ١٩٨٠: ٤٩؛ البكر ١٩٧٨: ١٣٩) ويقال لهم العدنانيون، أو النزاريون، أو المعديون (الشامي ١٩٧٨: ٢٨؛ البكـــر ١٩٧٨: ١٣٩). وموطنهم الأول مكة على ما يستنبط من كـــلام الاخباريين، فيها تعلم اسماعيل العربية، وفيها أنجب أولاده؛ فهي إذن المهـــد الأول للإسماعيليين (علي ١٩٧٨: ٣٧٥). وقال ابن منظور:

"أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب يَعرُب بن قحطان، وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة. ونشأ اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة، وقيل أن أولاد اسماعيل نشأوا بعربة، وهي من تهامة، فنسبوا إلى بلدهم" (ابن منظور، اللسان: حرف العين).

وقد كانوا بدواً، أهل خيام وابل ورحلة وغزو، عرفوا كذلك باسم أهل العرب، وكانوا لا يستقرون في مكان بحثاً عن المرعى والمياه، لا يبنون بيوتاً ولا ينشئون مدناً، على خلاف أهل الجنوب (الشامي ١٩٧٨: ٢٩). ولكن الغريب في الأمر أن اسم عدنان غير موجود في النصوص الجاهلية، ولم يرد ذكره عند المؤلفين اليونان والرومان، كما لم يَذكر عدنان جاهلي قط، غير لبيد بن ربيعة الكلابي في بيت واحد من شعره (البكر ١٩٧٨: ١٤٢). ومن أهم قبائل عرب الشمال (العدنانيون): "معد" (الشامي ١٩٧٨: ٣٠).

واتفق الاخباريون أيضاً على تقسيم العرب من حيث النسب إلى قسمين: قحطانية منازلهم الأولى في اليمن، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز (مهران ١٩٩٤: ٢٩٤؛ علي ١٩٧٦: ٢٩٤). وقد كان عدنان في نظر العدنانيين هو جدهم الأعلى، كما أن قحطان هو الجد الأعلى للقحطانيين (علي ١٩٧٦: ٣٧٥).

ويرى النسابون العرب أن العرب عرق لا جماعة من الناس فقط يتكلمون لغة واحدة، ويتألف هذا العرق من عدد من الرجال والنساء لا حصر لهم ينحدرون من أحد جدين (قحطان وعدنان). ولكن هنالك خلاف كبير بين

النسابين حول نوعية الصلة أو القرابة التي تربط بين هذين الجدين اللذين ينحدر منهما العرق العربي (عاقل ١٩٨٨: ٣٢).

ويفرق المؤرخون بين عرب الجزيرة العربية، فيقسمونهم إلى قسمين آخرين أيضاً: عرب الشمال وعرب الجنوب (كحالة ١٩٧٩: ٣٠؛ معروف ١٩٧٥: ٧٨).

١. **عرب الشمال** وهم عبارة عن إمارات أو ممالك صغيرة وجدت في القسم الشمالي من شبه الجزيرة (يحيى ١٩٨٤: ٩٦)، وقد سكنوا في الحجاز، ونجد، وأواسط بلاد العرب، وكانوا يتكلمون العربية الخالصة وهي لغة القرآن الكريم (حتي وآخرون ١٩٨٦: ٥٩؛ معروف ١٩٧٥: ٧٩). ومن أقدم دولهم: دولة الأنباط، الدولة التدمرية، دولة الغساسنة، ودولة المناذرة.

٢. **عرب الجنوب** فقد كان تكوينهم السياسي تشكله ممالك قامت في جنوبي شبه الجزيرة، وكانت هذه الملكيات أكثر ثباتاً واستقراراً وأقل اعتماداً على الظروف العارضة من الممالك الشمالية (يحيى ١٩٨٤: ٩٩). وقد عاشوا في اليمن وحضرموت، وكانت لغتهم السبيئة أو الحميرية (حتي وآخرون ١٩٨٦: ٥٩؛ الشامي ١٩٧٨: ٢٨؛ معروف ١٩٧٥: ٧٩). ومن أقدم دولهم: الدولة المعينية، الدولة السبئية، الدولة الحميرية، ودولة كنده.

العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام:

يرى فريق من العلماء وعلى رأسهم المستشرق الإيطالي "كيتاني" أن سكان الجزيرة العربية هم الساميون، وأنهم جنس من أصل واحد تتشابه لغاته (معروف ١٩٧٥: ٧٧)، وأنهم سُموا كذلك نسبة إلى سام بن نوح (البكر ١٩٧٨: ٩٩)، وذلك اعتماداً على ما جاء في التوراة التي جعلتهم إحدى التقسيمات البشرية الثلاثة التي ترجع السلالات البشرية على تعدد قبائلها وشعوبها إلى أبناء نوح الثلاثة: "سام وحام ويافث" (مهران ١٩٩٤: ١٦٣). ولكن الاختلاف مستمر على الموطن الأصلي لهؤلاء السكان، فبعض الآراء تنسب هذا الوطن إلى أفريقيا، وبعضها ينسبه إلى آسيا، والبعض الآخر وهم الأكثرية الغالبية ينسبونه إلى شبه الجزيرة العربية نفسها، وعلى وجه التحديد المنطقة الجنوبية منها، حيث الموطن الأصلي للساميين (الشامي ١٩٧٨: ٢٣).

ومما لا شك فيه أن العرب هم الشعب السامي الوحيد الذي احتفظ أكثر من غيره بالخصائص العقلية والطبيعية للشعوب السامية، فضلاً عن أن اللغة العربية أكثر اللغات السامية الباقية احتفاظاً بخصائص اللسان السامي الأصلي (البكر ١٩٧٨: ٩٩). وانطلاقاً من هذا، يذهب "موسكاتي" إلى أن الشعوب السامية في لغتها تؤلف كتلة واحدة، لا باجتماعها في صعيد جغرافي واحد والتحدث بلهجات لغة واحدة فحسب، ولكن باشتراكها في أصل حضاري تاريخي واحد أيضاً (مهران ١٩٩٤: ١٦٩).

ويتكون المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية من عنصرين رئيسيين: البدوي والحضري فالبدوي كما يُعرف ابن خلدون أهله: "هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من

الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومُقصرين عما فوق ذلك مــن حاجــي أو كمالي، يتخذون البيوت من الشعر والوبر، أو الشجر، أو من الطــين، والحجــارة غير المنجدة. أمّا ابن العبري فقد قال: "وأما أهل الوبر (في الجاهلية) فهم قطان الصحاري، وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها منتجعين بمنابت الكلأ مرتادين لمواقع القطر، فيخيمون هناك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي، يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه.

فلا يزالون في حل وترحال، وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والشتاء. فإذا جاء الشتاء واقشعرت الأرض انكمشوا إلى أرياف العراق وأطراف الشام، فشتوا هــناك مقاســين جهــد الزمان ومصطبرين على بؤس العيش (كحالة ١٩٧٩: ١٠٢).

والمجــتمع الحضري هو المجتمع الذي يتخذ له من الحضر أو المدينة مقرا للإقامــة الثابتة، أي ساكن القرية أو المدينة. وتتكون القرية من البيت، والمعبد، وصهريج الماء، والطريق العام، والسوق، هذا فضلاً عن الحكومة والقانون والعدل (الفاســي ١٩٩٣: ٩٦). وقام الحضريون بزراعة الأرض واستثمارها، واشتغلوا بالــتجارة واتخذوا من مدنهم وقراهم مراكز ومحطات تجارية، كما عرفوا بعض الصــناعات البســيطة (الشــامي ١٩٧٨: ٤٢). وقــد امتزجوا بشعوب قديمة كالفنيقــيين، والكلدانيين، واليونان، والرومان، والفرس، والمصريين، والأحباش، والزنوج، واختلطوا بها بعوامل الهجرة، والجوار، والغزو، والتجارة، والاسترقاق وغيرهــا. فــلا غريب إذن أن نجد هؤلاء الحضر مزيجاً من أرومات أمم مختلفة (كحالة ١٩٧٩: ١٣٥، ١٣٦).

على أنه كان بين الحياتين تواصل مستديم، تربطهما طرق التجارة والواحات المنتشرة التي تتوافر فيها شروط ملائمة لإقامة بعض النشاط الزراعي، أو مياه كافية وموقع مناسب لتكون محطات على طرق القوافل وأحياناً كانوا يرتبطون بالنسب والمصاهرة (كحالة ١٩٧٩: ١٣٩؛ الشامي ١٩٧٨: ٤٣)، ويبدو هذا التأثر واضحاً في واحة حايل أو -عاصمة نجد- حيث أهلها أقرب في مظهرهم إلى البداوة منه إلى الحضر.

وقد كان العرب الأوائل على جانب كبير من الثقافة والمعرفة، فقد ذكرت عنهم الأمم القديمة كاليونان، والرومان، والبابليين، والآشوريين الشيء الكثير ووردت أخبارهم في الكتب الدينية المقدسة، وعثر المستشرقون وعلماء الآثار والرحالون على نصوص وآثار منقوشة أو مكتوبة تدل على ما وصلت إليه حضارتهم.

فمثلاً كان لأوروبا في عهد اليونان والرومان معرفة بشؤون الجنوب من جزيرة العرب، فلقد ذكر هيرودتس وسواه ساحلها الغربي. وكان أهم سبب لالتفات اليونان والرومان إلى الجزيرة العربية أن الجزء الجنوبي منها كان بلد اللبان والطيب والبهار، وأن سكانه كانوا همزة الوصل بينهم وبين أسواق الهند وبلاد الصومال (حتي وآخرون ١٩٨٦: ٣٢). وقد كان العرب أمّا تجاراً، أو ناقلين للتجارة، أو حماة لمسيرها (غلاب ١٩٨٤: ١٩٥)، حيث قال سترابون عنهم: "العرب تجار وسماسرة وقوم تجارة وبيع وشراء وبذلك لم يكونوا أمة حرب لا بالبر ولا بالبحر" (الرشيد ١٩٨٤: ٢١٦). وظل هذا الدور الحضاري العربي من نصيب العرب حتى العصر الحديث، ومن ثم قامت عدة مراكز تجارية هامة مثل (أورخا) على حافة أرض الجزيرة العليا، ونشطت حلب كمركز تجاري على الطريق الملكي الذي يصل أفسوس على بحر إيجة ومدن أعالي العراق. كما كانت

تجـــارة موانئ البحر المتوسط السورية تخترق الفتحات الطبيعية في الجبال السورية وتصل إلى الواحات التي تحف بهذه الجبال من الشرق (غلاب ١٩٨٤: ١٩٥).

وقـــد كان العرب همزة وصل تجارية بين أقطار العالم القديم، يحملون إلى الشـــرق منتجات الغرب من خشب الأبنوس، وريش النعام، ومن عاج، وذهب وفضة، والى الغرب منتجات الشرق من توابل، وأفاوية، وفلفل وبهار، وقصدير. كمـــا كانوا يحملون إلى كل من العالمين منتجاتهم النفيسة، وفي مقدمتها البخور، واللؤلؤ، والمرجان، والأحجار الكريمة، إلى غير ذلك مما كانت تجود به صناعاتهم مـــن ثـــياب محبرة، وبُرد موشاة، وأثواب مقصبة، وبسط مرحلة (شرف الدين ١٩٨٤: ٢٥١).

وكـــان لهم علاقات تجارية مع مصر لحاجة المصريين إلى البخور واللبان، اللـــذان كانا يستعملان في تطييب المعابد وفي التحنيط، وقد كانا يكثران في بلاد العـــرب الجنوبية. كما كانوا على اتصال دقيق بالعالم الخارجي كالهند، وفارس، وبـــلاد أفريقيا، وبلاد الروم، وكانت لهم علاقات تجارية أيضاً مع السومريين في العراق.

وهذه الأهمية للجزيرة العربية تأتي من سيطرة العرب على التجارة البرية منذ حوالي الألف الثاني قبل الميلاد وربما قبل ذلك أيضاً، وإن لم يعن هذا أنهم لم يعرفوا الطرق البحرية أو يسيطروا عليها (الفاسي ١٩٩٣: ٤١). ونظراً لاعتماد العـــرب على الطرق البرية كخطوط لتجارتهم، ازدهرت معها مدن القوافل التي تتوفـــر بهـــا المياه، والطعام، والأسواق. وشيئاً فشيئاً أصبحت هذه المدن ممالك وحكومات تفرض المكوس والضرائب، مما يكفل للدولة دخلاً دائماً نظراً لكثافة الـــتجارة وارتفاع أثمان السلع. ومن الجدير بالذكر أن نشوء مدن جزيرة العرب

وممالكهـــا، وحكوماتها، وكذلك سقوطها، قد تأثر كثيراً بدورها الاقتصادي في تجارة العالم القديم.

وقـــد تكيف تاريخ وحضارة الشعوب التي عاشت في هذه المناطق كلها بالأحـــوال الطبيعية لبيئتها. فالحركات المختلفة للهجرة أو الفتح تأثرت بالعوامل الاقتصادية والمناخية التي تسيطر على حياة الناس، واتجاه هذه الحركات إنما حددته الخطوط الطبيعية للمواصلات، وامتلاك هذه الخطوط وما يستتبعه من سيطرة على الحياة كلها في هذه المنطقة حددا سير التاريخ (موسكاتي ١٩٥٧: ٤٠).

وبحكـــم إقامة هذه الدول في ملتقى القارات الثلاث —التي كان يتكون مـــنها العالم القديم- وهي آسيا وأفريقيا وأوروبا، فقد خضعوا لتأثيرات خارجية كـــثيرة كالآشـــورية، والبابلية، والمصرية، واليونانية، والرومانية، فاستوعبوا هذه الـــتأثيرات ومـــزجوها بحضاراتهم، فخرجت تحف فنية فريدة تمثلت في العمارة، والمـــدافن، والتماثـــيل وغيرها. كما أن رقي الهندسة المعمارية وإتقان نظم الري فواضـــح في بناء المدن، وفي بناء القصور، وإنشاء الخزانات، وإقامة السدود، وأما مهاراتهم في الصناعة، فتظهر في التصوير على الأقمشة والجدران، وفي نحت الآلهة والتماثيل المختلفة من الحجر، والمعدن، والخشب. أضف إلى ذلك أن بعض عرب ما قبل الإسلام كانوا يدونون أخبارهم في كراريس، وصحف، ورقوق، ونقوش على الجدران، والمباني، والأضرحة.

ويـــرى ابن الأزرق أن العرب في الجزيرة العربية أقدمهم ومتأخروهم في الجاهلية بنوا حضارة، وأسسوا صناعات، وزاولوا بعض الحرف التجارية التي تدر علـــيهم أرباحـــاً والـــتي تسهم في إنعاش صادراتهم، حيث يقول: "وأما اليمن والبحرين والحجاز والجزيرة وأن ملكها العرب، إلا أنهم تداولوا ملكها آلافاً من

الســـنين، واخـــتطوا أمصارها ومدنها، وبلغوا المبالغ من الحضارة والترف كعاد، وثمود، والعمالقة وتبّع، والأذواء..." (الرشيد ١٩٨٤: ٢١٦).

الديانة:

لقـــد عني العرب بالإضافة إلى ما تقدم بمعرفة أمور كثيرة اضطرهم إليها حـــياتهم ونمـــط معيشـــتهم، فقد اهتموا بمعرفة الفلك والنجوم، وتعلموا مواقع الأبراج، ومنازل الشمس والقمر. وعرفوا أيضاً الميثولوجيا: وهي ما بين الآلهة من حروب، وزواج، وعلاقات (معروف ١٩٧٥: ١١٨)، وعرفوا الكهانة، والقيافة، والريافة[1] (فروخ ١٩٦٤: ١٦٢).

وكـــان للعـــرب قبل الإسلام كما كان لجميع الشعوب الفطرية وغير الفطـــرية أيضاً خرافات يعتقدونها ديناً وتقليداً، وقد كانت الخرافة حقيقة تاريخية ولكنها عللت تعليلاً خاطئاً (فروخ ١٩٦٤: ١٦٠). فقد وجدت أشكال كثيرة للسحر، وعبادة الجماد، واتخاذ التمائم والتعاويذ والرقي، وكان الجاهليون يحملون بعض الحيوان مثل سن ثعلب، أو هرة، أو كعب أرنب، أو غير ذلك، وقد قدسوا تلـــك الأشـــياء لاعتقادهم أن فيها قوة خفية ساحرة تجلب إلى أصحابها السعد، وتبعد عنهم الشر والأذى والحسد (محيي الدين ١٩٨٤: ١٦٠).

والعـــرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبدوا لآلهة، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب

---

(1) القيافة: الاستدلال بآثار الأقدام، والحوافر، والأخفاف على أصحابها، أو معرفة مكامن الأعداء. والريافة: معرفة استنباط الماء من الأرض ببعض الدلائل الخاصة، والاهتداء في البر والبحر بالكواكب الثابتة ومنازل القمر (معروف ١٩٧٥: ١١٨).

منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق، ووضعوا لها أسماء وصفات، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم، وهي ما نسميها في لغاتنا بالأديان (علي ١٩٧٠: ٥؛ ديسو ١٩٥٩: ٥). وقد ساعدت البيئة الجغرافية والظروف الطبيعية للجزيرة العربية التي في عمومها صحراء ممتدة فسيحة ليس فيها أنهار دائمة الجريان وإنما فيها أودية يسيل فيها الماء أحياناً، قد أثرت بلا شك في تكوين العقلية العربية والتفكير الديني. حيث سرح العربي في تلك اللانهاية الممتدة بلا حدود إلى خط الأفق، وطاف بخياله في أعماق السماء باحثاً عن سر ذلك الامتداد وهذا العمق، حيث اقتنع بوجود قوى خفية خلف هذا الامتداد ووراء هذا العمق (محيي الدين ١٩٨٤: ١٨٥).

ويظهر أن جزيرة العرب قبل الإسلام كانت تزخر بعدد من الأديان السماوية والأرضية، ومن هذه الأديان: الوثنية، والشرك، والمجوسية، وتختلف مبادؤها وطقوسها باختلاف الدول والأقوام والقبائل التي اعتنقتها. والعرب -بوجه عام- وثنيون، فمنهم من كان يعبد الأصنام والأوثان، إما لذاتها أو يجعلونها شفعاء لهم لتقربهم إلى الله (معروف ١٩٧٥: ١٢٤). فقد ذكر هيرودوت عرباً يقيمون في المدن الفلسطينية التي عبدها العرب: اللات والعزى (محي الدين ١٩٨٤: ١٥٩) التي ذكرها القرآن الكريم في (سورة النجم، الآية ١٩-٢٤) (البكر ١٩٨٧: ٢٥٦).

وقد عرف العرب في الجزيرة العربية طائفة كبيرة من الآلهة، ولكنها ليست آلهة أو آلهات محددة تحديداً واضحاً لها صفاتها وأساطيرها الثابتة، بل أرواح كل منها تهيمن على موضع وتحميه مثل البعول الكنعانية المختلفة (موسكاتي ١٩٥٧: ٢٠٦). فخيال العرب أضفى أرواحاً على الآبار، والأشجار، والحجارة (معروف ١٩٧٥: ١٢٦؛ موسكاتي ١٩٥٧: ٢٠٦)، وعلى بعض الأجرام

الســـماوية كالقمر والنجوم، وبعض المظاهر الطبيعية الأخرى كالأمطار والرياح (البكر ١٩٧٨: ٢٥٦)، وعلى عدد من الحيوانات (محيي الدين ١٩٨٤: ١٦٠).

وقــد عــبد العرب قبل الإسلام الكواكب والأجرام السماوية، فعبدوا الشمس لما لها من تأثير في تحسين الإنتاج الزراعي، وعبدوا القمر لما له من تأثير في تحســين المراعــي بالطل، والندى، ونمو النباتات والزروع، وعبدوا أيضاً الزهرة وزحــل (معــروف ١٩٧٥: ١٢٤-٢٦). ويمكن القول أن عبادة العرب قبل الإســلام تتكون من ثالوث كوكبي مقدس: القمر-الشمس-الزهرة التي عبدت تحت أسماء ونعوت مختلفة (البكر ١٩٨٧: ٢٥٧؛ علي ١٩٨٤: ١٠٩).

ومــنهم من عبد الجن (الشامي ١٩٧٨: ٧٨)، وكان منهم من يرى أن هناك نسباً بينهم وبين الله نشــأ من المصاهرة، وهو مــا ورد في قوله تعــالى: **﴿وجعلــوا بينه وبين الجنّة نسباً، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون﴾**[1]. ومنهم أيضاً من عبد الملائكة، ورأوا أنها بنات الله وأنها إنـــاث (محيي الدين ١٩٨٤: ١٦٢).

ولم يكن في مثل هذه المجتمعات مكانة لهيئة منظمة من القساوسة، حيث كانت ترعى الأماكن المقدسة جماعات من الأسر أو القبائل، ولكن لم يكن هناك احتكار لحق تقديم القرابين أو أداء أية طقوس أخرى (موسكاتي ١٩٥٧: ٢٠٧). وكــان هــناك نمط خاص من المتنبئين يسمى الواحد منهم كاهناً، كان هؤلاء الكهــان يتكهــنون بــإرادة الآلهة بواسطة نبوءات غامضة، كما كانوا يؤدون واجبات القاضي والحكم (موسكاتي ١٩٥٧: ٢٠٧).

---

(1) الصافات: ١٥٨.

ولعبت الطقوس الدينية مثل الذبائح والنذور والفرع -أي تقديم البكر من الناتج إلى الآلهة- دوراً مهماً في الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام (علي ١٩٨٤: ١١٢). وقد تمكنا بفضل الكتابات من الوقوف على شيء منها، ولكنها لا تزال بكراً من حيث البحث تنتظر قيام العلماء بالبحث عن نصوص وكتابات جديدة. وكان للدم أيضاً دور خطير في أديان البشر، حتى كان منهم من يضحي من البشر إرضاء للآلهة. وفي المعابد مذابح عليها القرابين، ومذابح حريق تحرق عليها هذه الذبائح، وفي معابد الجاهليين توجد مثل هذه الذبائح كذلك (علي ١٩٨٤: ١١٢).

ونعرف أن العرب مذكورون في نقوش ووثائق قديمة جداً عند الأمم المجاورة، من العراق إلى أرض كنعان، إلى كتابات المصريين واليونان والرومان، قد ضاع الكثير من تراث وتاريخ أولئك العرب الأوائل، وأضاع ما بقي منه إهمال الرواة في ظل الإسلام لحفظ ما أثر عن هذه الجاهلية.

وبعد فإن الدراسة التالية تتناول أهم الفئات العربية التي كان لها حضور سياسي وحضاري مؤثر في التاريخ العربي ما قبل الإسلام.

الفصل الثاني

الثموديون

- الثموديين.
- موطن الثموديين.
- النقوش الثمودية.
- المجتمع في النقوش الثمودية:

١. الزراعة والرعي والصيد.

٢. التجارة.

٣. الحرب والقتال.

٤. الديانة.

٥. المدافن.

الثموديون:

الـثمد لغة: هو الماء القليل الذي يأتي حيناً بعد حين. وثمود هي التسمية التي جاءت مـن قبيلة ثمود (TMD) التي ذكرت في قائمة سرجون الثاني عـام (٧١٥) قبل الميلاد (مهران ١٩٩٤: ٣٢٥؛ الشتلة ١٩٨٠: ١٨٩؛ البكر ١٩٧٨ : ١٧)، حيث دعوا بـ (Tamudi) و (Thamudi) (مهران ١٩٩٤: ٣٢٥؛ علي ١٩٧٦: ٣٢٦)، وهي التي ذكرت أيضاً في القرآن الكريم على أنها مجموعة منقرضة أو بائدة، عصت رسولها فاصيبت بكارثة عظيمة دمرتها إلى الأبد (القرآن الكريم، الحاقة،٤، ٥، ٦). ينسب الثموديون إلى "ثمود بن جاثر بن أرم بن سام"، ويـذهب البعض إلى أن ثموداً إنما هو أخو "جديس وطسم" وأنهم أبناء "عابر بن أرم بن سام بن نوح"، ويكتفي البعض بإرجاع نسبهم إلى عاد على أنهم من بقية عاد (مهران ١٩٨٠: ٢٦٥؛ البكر ١٩٧٨: ١٢٤).

وأمـا النبي الكريم صالح عليه السلام فهو في رأي البعض "صالح بن عبيد بن حاذر" أو (حاجر بن ثمود) وهو -في رأي البعض الآخر- "صالح بن أسف بن ارم بن ثمود"، إلى غير ذلك من سلسلة الأنساب (مهران ١٩٩٤: ٣٢٢).

ويجمـع المؤرخـون الإسلاميون على أن الثموديين عرب، بل ويكادون يتفقون على أنهم من العرب العاربة. ويذهبون بعد ذلك مذاهب شتى، حيث يرى بعضهم أن ثمود شرذمة من الهكسوس الذين طردهم أحمس الأول من مصر، وأنهم نحتوا بيوتهم على غرار المقابر المصرية التي شاهدوها في أثناء احتلالهم مصر (مهران ١٩٩٤: ٣٢٣؛ البكـر ١٩٧٨: ١٢٤)، ولـيس لهذا الرأي من دليل قاطع أو ثابـت. ويرى بعضهم أن الثموديين وجدوا منذ آلاف السنين في جنوب الجزيرة

العربية وطردهم الحميريون، ثم هاجروا إلى بلاد الحجاز وانتشروا في شمال الجزيرة العربية (مهران ١٩٩٤: ٣٢٤).

ولكـــن الأمر المؤكد أن الإخباريين العرب لا يعرفون أخباراً كثيرة عن تاريخ الثموديين، ولهذا فقد جاءت الروايات عنهم على صورة أساطير. إذ ذكروا أن ملكهم الأول وهو "عابر بن أرم بن ثمود بن عابر بن أرم بن سام" حكم مئتا سنة، ثم ملك بعده "جندع بن عمرو بن الذبيل" وحكم ثلاثمائة وسبع وعشرين سنة، إلى غير ذلك (البكر ١٩٧٨: ١٢٤).

ولا يـــوجد أدلة علمية مؤكدة نستطيع أن نستند إليها في التأريخ لقوم ثمود، ولكن بصفة عامة يمكن القول أن الثموديين كانوا يشغلون صفحات التاريخ منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد حتى القرن الخامس الميلادي (مهران ١٩٨٠: ٢٨١)، لأن لديـــنا كـــتابات آشورية تتحدث عن الثموديين صراحة منذ القرن الـــثامن قبل الميلاد وبالتحديد منذ عهد سرجون الآشوري (٧٢٢-٧٠٥ق.م) (البكر ١٩٧٨: ١٢٥).

موطن الثموديين:

ورد أول ذكـــر للثموديين في كتابات الملوك الآشوريين بأنهم هم الذين غـــزوا الجزء الشمالي من الجزيرة العربية وتمركزوا فيه حقبة من الزمن (الروسان ١٩٩٢: ٣)، حيث ظهرت أول إشارة تاريخية مسجلة تذكر الثموديين في قائمة سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ق.م) بالعراق، حيث عثر على قائمة باللغة المسمارية تذكـــر الملك سرجون في إحدى انتصاراته التي حققها بعد حملاته على الجزيرة العربية تذكر اسم ثمود (الشتلة ١٩٨٠: ١٨٩؛ البكر ١٩٧٨: ١٧)، حيث دعوا

بـــ (Tamudi) و (Thamudi) (علـــي ١٩٧٦: ٣٢٦) وقد تغلب عليهم وأجلاهم من مواطنهم إلى السامرة (Samaria) (مهران ١٩٨٠: ٢٦٩) وهذه القائمة تؤرخ بعام (٧١٥ق.م).

يقول الملك الآشوري في حوليات السنة السابعة: "طبقاً لوحي صادق من أشور إلهي، قضيت على قبائل تامودي ومرسيمانوا وخبايا والعرب الذين يعيشون بعـــيداً في الصحراء والذين لا يعترفون برؤساء أو موظفين والذين لم يكونوا قد جـــاءوا بجـــزاهم لأي ملك، سبيت الأحياء منهم ونقلتهم إلى السامرة" (مهران ١٩٩٤: ٣٢٥). وهـــناك نقـــش مسماري آخر في العراق، يذكر أن الثموديين الذين عاشوا في الجزيرة العربية سكنوا منطقة تسمى بـــ "خاجابا" (Hajappa) وذكـــرت في الإنجـــيل باسم (EfA)، وهذا الاسم مذكور ومحفوظ على نقوش معبد "روافا" (الشتلة ١٩٨٠: ١٨٧).

وقد جاء ذكر الثموديين في النقوش السبئية أيضاً، ومن ذلك نقش يرجع إلى نهاية القرن السادس أو بداية القرن الخامس قبل الميلاد، ويحكي قصة اثنين من قبيلة ثمود كانا يباشران العمل في ري نخيلهما، ورغم أننا لا نعرف من أي مكان جاء هذا النقش على وجه اليقين، فأغلب الظن أنه من بلاد سبأ (مهران ١٩٨٠؛ ٢٧٠). ووردت نقوش سبئية أخرى تذكر الثموديين، أحدها يذكر شخصاً أسمه "عـــبد" مـــن قبيلة ثمود، وقد وجد في وادي "ثوبا" على بعد مئتي كيلومتر شمال شـــرق عدن، ونقش آخر وجد في "سيق" في وادي "ميفعا" جنوب عدن ويذكر اسم ثمود (TMD) أيضاً (مهران ١٩٩٤: ٣٢٧؛ طلفاح ١٩٩٣: ١٥).

وجاء ذكر ثمود في النقوش الصفوية التي وجدت في الصحراء الأردنية في منطقة الرويشد والصفاوي، وأشارت إلى حرب بين ثمود وقبيلة "جشم" الصفوية

(طلفـــاح ١٩٩٣: ١٤). وورد ذكـــر ثمود (ث م د) أيضاً في النقوش الثمودية نفســـها ست مرات حتى عام ١٩٩٣، حيث وجدت هذه النقوش بمناطق مختلفة داخل الجزيرة العربية، أحدها في منطقة "لقط" غرب جبل "مسما" بحوالي ستين كيلومتراً (طلفاح ١٩٩٣: ١٦).

أمّـــا بالنسبة لمواطن ثمود، فقد تحدث الكتّاب من الأغارقة والرومان عن مواطـــنهم، فذكـــر أجاثر خديس الروماني (Agatharchiedes) (١٢٠م) أن الشاطئ الصخري الذي يبلغ طوله مائة ستاده ويقع وراء الجزر الصغيرة قريباً من الخليج الطويل للبحر الأحمر كان يسكنه العرب الثموديون (الروسان ١٩٩٢: ٦؛ البكر ١٩٧٨: ١٢٥).

أمّـــا بلـــيني أو بلينـــيوس (Plinius) (٣٢-٧٩م) فقـــد ذكر أن ثمود ومواطنهم تقع بين "دوماتا" (Domata) و "الحجر" (Haegra) وميدنة "بدناثا" (Badnatha) علي ١٩٦٧؛ ٣٢٥). وقد رجح العلماء أن المقصود بـــ "دوماتا" و "الحجـــر" دومـــة الجندل والحجر، أمّا المدينة الثالثة فيعتقد إدوارد جلازر أنها "بيشـــة" الحالية في عسير (مهران ١٩٨٠: ٢٧٢). وهكذا نرى أن بليني أسكن الثموديين في الداخل، ربما لأن الساحل في ذلك الوقت إنما كان يحتله اللحيانيون الـــذين يعتـــبرون فـــرعاً من الثموديين، وذكر بطليموس (Ptolemy) في كتابه الجغـــرافيا (Geography) أن الثموديين منتشرون في شمال غرب الجزيرة العربية بـــين (Sarakenoi) وبـــين (Apatae) (الروسان ١٩٩٢: ٦؛ البكر ١٩٧٨: ١٢٥؛ علـــي ١٩٧٦: ٣٢٥)، وأنهـــم ســـكنوا مـــنطقة مدين (Madan) أو (Madiana) (الشـــتلة ١٩٨٠: ١٩١). ويـــرى بطليموس أيضاً أنه ربما امتد نفـــوذهم إلى مـــا وراء خليج العقبة، بل ويشير أيضاً إلى أنهم سكنوا في المناطق الداخلـــية أيضـــاً وبخاصة حول جبل "زاماتوس" (مهران ١٩٨٠: ٢٧٣) وأن

معبدهم الرئيسي كان في "الروافة" التي تقع في أقصى جنوب إقليم "حسمي" (البكر ١٩٧٨: ١٢٥). ويظهر من جغرافية بطليموس أن ديار ثمود غير بعيدة عن ديار عاد، ليس بينها وبين ديار عاد (Oaditae) إلا ديار سركيني (Sarakenoi)، وكلها في أعالي الحجاز في هذه المنطقة الجبلية التي تخترقها الطرق التجارية التي توصل الشام ومصر بالحجاز واليمن (مهران ١٩٨٠: ٢٧٣؛ علي ١٩٧٦: ٣٢٥). ويضع كلوديس بتولمايس (١٣٨-١٦٥م) موطن ثمود أيضاً بين سركيني (Sarakenoi) وبين (Apatae)، أي الجزء الشمالي الغربي من بلاد العرب على شواطئ مدين (مهران ١٩٩٤؛ ٣٢٨).

أمّا ديودوروس الصقلي (Diodorus S.) فقد ذكر في كتابه (Bibliotheca Historica) أن القبائل الثمودية كانت منتشرة في أماكن عديدة على الساحل الغربي للجزيرة العربية، حيث كانوا مجتمعات كبيرة ومتحضرة تعمل بالتجارة (الشتلة ١٩٨٠: ١٩٠). بالنسبة لـ أراتوسثينس (Eratosthenes) (٢٧٦-١٩٤ق.م) فقد قسم بلاد العرب إلى قسمين: قسم شمالي سكنه الأنباط، وقسم جنوبي سكنه المعينيون، والفيتانيون، والحضارمة، وبين الاثنين منطقة وسط -هي الحجاز وعسير- "يسكنها عرب يقتفون الأثر ويرعون الإبل" (مهران ١٩٨٠: ٢٧١). وأكبر الظن أن الرجل قد قصد بذلك الثموديين الذين شاهدهم أراتوسثينس، الذي قام برحلته على سواحل البحر الأحمر الشرقية أيام بطليموس الثاني (٢٨٤-٢٤٦ق.م).

أمّا موسل (Musil) فقد ذكر أن قوم ثمود كانوا يقيمون على حيّد صخري طويل لا يصلح لسير السفن، وليست فيه خلجان تستطيع أن تؤوي إليه القوارب فتحتمي من الرياح، ولا ميناء تتمكن من الرسو فيه، ولا موضع أو جزر عنده تقبل إليه القوارب الهاربة من الأخطار (علي ١٩٧٦: ٣٢٥). ويظهر من

وصــف هــذا المؤلف أن موطن ثمود كانت في الحجاز وهذا يدل على صعوبة المكان الذي اختاروه ليكون مقراً لهم.

وفي رأي أورانــيوس فــإن ثمود تقع على حدود المقاطعة النبطية (مهران ١٩٩٤: ٣٢٧)، أي في الجــزء الشمالي الغربي من بلاد العرب (البكر ١٩٧٨: ١٢٥). أمّا دوتي (Doughty) فيذهب إلى أن الحجر التي سكن بها قوم ثمود هي موضــع الخريبة "العلا" في الزمن الحاضر، لا مدائن صالح التي هي في نظره حجر النــبط. وتقــع مدائن صالح –وهي عاصمة النبط– على مسافة عشرة أميال من موضع الخريبة وتسمى الشقيقة الصغرى لمدينة البتراء (علي ١٩٧٦: ٣٢٦).

وعلى أي حال فإن جُلّ المصادر الكلاسيكية تدلنا على أن الثموديين قد ســكنوا المناطق التي سبق للجيوش الآشورية أن احتلتها منذ قرون مضت، وهي مــناطق "الجــوف" و"موصــري" حتى "بدناثا" في الجنوب. ولكن يجب الأخذ بالاعتــبار أن الأماكن التي خصصتها المصادر المختلفة كمواطن ثمود، إنما كانت عرضة للاحتلال أو الإخلاء من جانب الثموديين تبعاً للظروف السياسية السائدة في ذلك الوقت (مهران ١٩٩٤: ٣٢٩).

وقــد ذكر المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر: "أن منازل ثمود كانــت بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي، وديارهم بفج الناقة، وأن بيوتهم منحوتة في الجبال، وأن رممهم كانت في أيامه باقية وآثارهم بادية، وذلك في طريق الحاج لمن ورد الشام بالقرب من وادي القرى (علي ١٩٧٦: ٣٢٤). أمّــا الطبري في تاريخه فيقول عن منازل ثمود: "كانوا يسكنون الحجر إلى وادي القرى بين الحجاز والشام". وتكاد تجمع الكتب العربية على أن ثمود كان مقامها بالحجر إلى وادي القرى بين الحجاز والشام (فروخ ١٩٦٤: ٤٧؛ زيدان ب.ت:

٧٧). إلا أن بعض المؤرخين والمفسرين ذهبوا إلى أن قوم ثمود سكنوا ناحية الرملة من فلسطين لأنها أقرب بلاد الخصب إليهم، وذهب فريق آخر إلى أنهم سكنوا مكة وأن صالحاً إنما توفي بها، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن موطنهم إنما كان في حضرموت، بل وزعم الفريق أن قبر النبي الكريم هناك كذلك. ووفقاً للنقوش الموجودة على معبد "الروافة"[1] الذي بنته قبيلة ثمود فيما بين نهاية عام (١٦٦م) وبداية عام (١٦٩م) (مهران ١٩٨٠: ٣٣٣-٢٧٦)، فإن ثمود كانت في منتصف القرن الثاني الميلادي تملك حرة العوارض وحرّة الرحا "الارحاء"، وكانت منازلهم تقع إلى الغرب من تيماء. فالبقعة المحيطة بواجهة الحجر كانت ملكاً لقبيلة ثمود، وقد ذكر الهمذاني: "أن الحجر موضع ثمود وفيها آثار عظيمة" (البكر ١٩٧٨: ١٢٦).

ويقول بعض علماء الآثار والدراسات الشرقية القديمة أن الدوائر البحرية المنتشرة في كافة أنحاء الجزيرة هي أماكن تجمعات ثمودية، إلا أن الأدلة الأثرية والتاريخية التي تؤيد ذلك لم تظهر بعد. غير أن الآثار الثمودية تقترن في بعض المواقع مثل "الحناكية" شمال حائل إلى أكثر من ثمانية آلاف سنة، وربما تكون الثمودية امتداداً لها (الشتلة ١٩٨٠: ١٨٥).

لم يعين القرآن الكريم موضع منازل ثمود، وإنما يظهر من آية: **﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾** — (سورة الفجر، الآية ٩)- أن مواضعهم كانت

---

(1) معبد الروافة: معبد يوجد في الروافة إلى الشمال الغربي، وهو معبد بني للثموديين وأهدي للإمبراطور الروماني ماركوس اوريليوس (Marcus Aurelius) ولوكيوس اوريليوس فيروس (Lucius Aurelius Verus). يؤرخ من (١١٦-١٦٩م) وعليه نقوش نبطية ويونانية (الأنصاري وآخرون ١٩٨٤: ٤٥).

في مناطق جبلية، أو في هضاب ذات صخور. وقد ذكر المفسرون أن معنى (جابوا الصخر) قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً، وأن (الواد) هو وادي القرى، فتكون مواضع ثمود في هذه الأماكن (علي ١٩٧٦: ٣٢٣). وذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب الحجر في قوله تعالى: **﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾** (قرآن كريم، الحجر، ٨٠)، ويعتقد بأن (أصحاب الحجر)[1] هم قوم ثمود (طلفاح ١٩٩٣: ٢٩).

وفي الموارد الإسلامية لم يرد ما يفيد وجود قبائل ثمودية قبيل الإسلام أو في الإسلام غير ما ذكره بعضهم من نسب ثقيف الذي أرجعوه إلى ثمود، ولكن ذلك لم يرض الثقفيين، فقد كان الحجاج بن يوسف يكذب ذلك (علي ١٩٧٦: ٣٢٦)، ويروي صاحب الأغاني أيضاً أخباراً تذكر أن ثقيفاً من بقية ثمود. ورواية أخرى لدوتي (Doughty) يذهب فيها إلى أن بدو نجد يذكرون أن قبيلة بني هلال من نسل عاد وثمود (مهران ١٩٨٠: ٢٧٦).

يمكن القول أن الثموديين كانوا يسكنون في القرن الثاني ق.م وحتى نهاية القرن الثاني الميلادي في بلاد مدين، فضلاً عن أننا نجدهم منذ بداية القرن الأول الميلادي في الحجاز، والجوف، ووسط الجزيرة العربية، وأنهم قد بقوا في هذه المناطق حتى نهاية القرن الثاني الميلادي (مهران ١٩٨٠: ٢٧٤). ومنذ بداية القرن الثاني الميلادي اتسعت منطقة سكن الثموديين تدريجياً حتى شملت بلاد العرب الشمالية والوسطى، من الحدود السورية شمالاً إلى مسافة قريبة من حدود سبأ جنوباً (مهران ١٩٩٤: ٣٣٠).

---

(1) الحجر: مدينة تقع في شمال غرب الجزيرة العربية شرقي الحجاز وجنوبي التيماء وشمالي خيبر والعلا (عبودي ١٩٨٨: ٣٤٣).

علـــى أية حال، فإن الدراسات الحديثة تثبت أن الثموديين قد عاشوا في شمـــال الجزيرة العربية منذ أعماق التاريخ، وتركوا لنا آثاراً ونقوشاً في كل مكان تقـــريباً مـــن هـــذه الأرض التي تمتد من الجوف شمالاً إلى الطائف جنوباً، ومن الإحســـاء شـــرقاً إلى يثرب فأرض مدين غرباً، ومن المسالك المؤدية إلى العقبة والأردن وسوريا، وحتى في أرض حضرموت من جنوب الجزيرة.

النقوش الثمودية:

الـــثمودية هـــو الاســـم الذي أُعطي للمخربشات (Graffiti) العربية الشـــمالية الأولى المكتوبة من قبل البدو، والموجودة بكميات هائلة في صحارى السعودية وصحراء حسما (Hisma) في جنوب الأردن (Cadra 1990: 11). وهـــي كـــتابات قصيرة سريعة كتبت أو نقشت على حجارة مختلفة الأشكال، والأحجـــام، والأنواع حسب المناطق (الروسان ١٩٩٦: ١٥). وقد دعيت هذه النقوش بالثمودية لورود هذا الاسم في العديد من نقوشها، حيث وجد العلماء أن محتوى هذه الكتابات كلمة (ث م د) مما دفع ليدزبارسكي (Lidzbarski) إلى إطـــلاق اسم الثموديين على أصحابها (طلفاح ١٩٩٣: ١٦). لكن البعض مثل "هوبرت كريمة" يرى أنها لأناس عاشـــوا معهـــم وجاوروهم (الروسان ١٩٩٦: ١٥).

والأبجديـــة التي استخدمت في النقوش الثمودية قريبة من الخطوط العربية الأخـــرى كاللحيانـــية والحميرية، التي تشبه الثمودية في كونها مخربشات عرضية (Harding, Littmann 1952: 7). ومن الجدير بالذكر أن واحة تيماء وجدت فيها أقدم نقوش ثمودية كتبت بخط يمثل أقدم أنواع الخط الثمودي، وسمي بالخط

التـــيماني، والملاحـــظ أيضاً أن الأبجدية الثمودية قريبة جداً من الأبجدية الصفوية (ديسو ١٩٥٩: ٦٤).

وهناك نوعان من الكتابة الثمودية: الكتابة الثمودية القديمة التي ترجع إلى مـــا قبل عام (١٠٠٠ق.م) (سيد ١٩٨٤: ٣٥٩) وقد دونت بقلم ثمودي قديم (علي ١٩٧٦: ٣٣٠). والثمودية الجديدة أو المتأخرة، وهي تنتشر على صخور الحجاز مع الكتابات العربية الشمالية الأخرى (سيد ١٩٨٤: ٣٥٩)، وقد كتبت بقلـــم ثمودي متطور تختلف أشكال حروفه ورسومها بعض الاختلاف عن القلم القـــديم (علي ١٩٧٦: ٣٣٠). ومن الملاحظ أن للقلم الثمودي صلة بقلم (طور سيناء)، كما أن له علاقة بالقلم المسند (علي ١٩٧٦: ٣٣٠).

وقد اهتم الجغرافيون الأوروبيون بالبحث عما خلفته القبائل الثمودية في الجزيـــرة العـــربية، وقام العديد منهم خلال القرنين السابقين باكتشاف وترجمة العديـــد من النقوش الثمودية. ومن هؤلاء أميك ريدجر (Emik R. Rödiger) الذي قام بأول محاولة للتعرف على هذه النقوش عام ١٨٣٧، وقام بجمع البعض مـــنها (الروســـان ١٩٩٢: ٣٤). وفـــيلهلم (H. F. Wilhelm)، وبيســـتون (A.F.L. Beeston)، ورينـــيه ديســـو (Rene Dessot)، وهوبر (Huber)، ويوتـــنج (Euting)، ودوتي (Charles Doughty)، وجوســـان وســـافينياك (Jaussen and Savignac)، ووينت (Winnet) وغيرهم الكثير. وقد أثبتت لـــنا تلك النقوش مدى ما كانوا عليه من تأثير وعظمة وألقت مزيداً من الضوء على حياتهم ومجتمعاتهم.

والـــنقوش الـــثمودية قصيرة وموجزة كتبها ونقشها الثموديون ليسجلوا أسمـــاءهم للذكرى، وقليل منها أدعية لآلهتهم، وهي صعبة القراءة لأنها خالية من

الشكل والإشباع والحركات والتشديد (الروسان ١٩٩٢: ٨١). وهي من ذلك النوع الذي يكتب في مناسبات شخصية مختلفة، وتتحدث عن موضوعات دينية وأدعية لآلهة ثمود، كما أنها ليست ذات فائدة تاريخية كبيرة (علي ١٩٧٦: ٣٢٨) وأن كان بعضها يدلنا على علاقات من نوع ما بين الثموديين والأنباط وغيرهم، فضلاً عما تفيده من الناحية اللغوية وفي معرفة أسماء الثموديين ولهجاتهم، بخاصة أنها كتابة متطورة من خط المسند (مهران ١٩٩٤: ٣٤٠).

إلى جانب ذلك، فإن النقوش الثمودية لا تخلو من مواضيع أخرى تطرق إليها كاتبو النقوش، ففيها النقوش التذكارية، نقوش التملك أو الملكية للأشياء، النقوش الدينية، نقوش المودة والمحبة، نقوش الحزن، نقوش الحرب، ونقوش أخرى ذكرت في مناسبات متنوعة. وقد تطرقت النقوش أيضاً إلى ذكر الكثير من الأسماء، كأسماء القبائل والأعلام التي كانت معروفة عند الثموديين.

أمّا فترة كتابة النقوش الثمودية فهي غير مؤكدة، وإن كان بعض العلماء يعيد تاريخها إلى فترة تقع بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثالث بعده، إن لم يكن بعد ذلك أيضاً، والبعض الآخر يرجعها إلى القرن السابع قبل الميلاد، وآخرين يرجعونها إلى ما بعد الميلاد -أي إلى (عام ٢٦٧م)- (مهران ١٩٩٤: ٣٤٢). فقد ورد في أحد النصوص ذكر للسيد المسيح عليه السلام، ولا يعرف تاريخ هذا النص على وجه التحديد، ولكن يرى ليتمان (Littmann) في ذلك أقدم دليل على انتشار المسيحية في شمال شبه الجزيرة العربية (مهران ١٩٨٠: ٢٨٨).

لقد عثر الآثاريون على نقوش ثمودية في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية تمتد من الجوف شمالاً إلى الطائف جنوباً، ومن الإحساء شرقاً إلى يثرب

فـأرض مدين غرباً. ووجدت نقوش في الأردن في مدائن صالح ممتدة إلى جنوب الأردن وربما البتراء (Harding, Littmann 1952: 7)، ولكن لا يميل وينيت (Winnet) إلى تـأريخ هذه النقوش إلى ما بعد (٣٠٠م) (الأنصاري وآخرون ١٩٨٤: ٤٥). وفي أم الرصـاص، وآدر قرب الكرك، والصحراء الشرقية قرب (H4)، وجـبل أرجا، وجبل طبيق، وفي رجم الشيد (Harding, Littmann 1952: 7). وفي مقاطعة الحسمة شمال شرق العقبة، ووادي رم. وفي هذه المناطق كانـت معظـم النقوش مخدوشة ومطروقة على حجارة رملية صخرية أو على صـخور متآكلة بفعل الماء، وكانت غير واضحة تماماً مما جعل تصويرها وقراءتها غـير ميسرة (Harding, Littmann 1952: 7). ووجدت نقوش ثمودية أيضاً في الأردن في الديسـة، ووادي رابغ، ووادي طفيف، والمقور، حيث تعتبر هذه المـناطق من أهم المراكز التي كانت ترتادها وتسكنها القبائل الثمودية (المحيسن ١٩٨٨: ٦). وفي وادي الدفيانة، ووادي تل الرماح، ووادي العاقب، والزعتري، وجميعها في محافظة المفرق في الأردن (الحصان ١٩٩٦: ٢٠).

ونقـوش أخرى في مناطق أخرى من الجزيرة العربية مثل حائل في نجد، وارض تـبوك وتيماء، وفي الطائف وطور سيناء، وفي الصفا شرقي دمشق، وفي مصر، والحرة، والرحبة شمالي غربي تدمر، وفي حجر المعقاب عند جبل حليل في الـيمن (علي ١٩٧٦: ٣٢٩) وفي المدينة المنورة، ووادي الأب الذي يبعد عنها حـوالي (٧٠كـم)، وفي مكة المكرمة، والطائف، وريع الزلالة في الطريق بينهم (مهران ١٩٨٠: ٢٨٣).

والملاحـظ أن أكثر النقوش الثمودية موجودة دائماً على الطرق الرئيسية عـند مصادر المياه مثل: عرجاء ورم، وتبوك، مع وجود نقوش قليلة على مسافة

من الشارع الرئيسي ولكن قرب المياه مثل: كلوة، وهضبة الحمرا (Harding, Littmann 1952: 7).

والشيء المؤثر في الحياة العربية الشمالية منذ آلاف السنين هو العدد الكبير من السكان الذين يعرفون القراءة والكتابة، أو على الأقل أسمائهم (Harding, Littmann 1952: 7). فهناك نص يعرف منه أن فتاة صغيرة كتبت اسمها على الصخر بينما كان والدها يراقبها عن قرب، فضلاً عن أنه هناك من احترف مهنة الكتابة بدليل وجود الاسم "كتب" أي كاتب، وهذه النقوش الشمودية -من دون شك- هي وثائق الجمالين العاملين في القوافل من مكان ما في ديدان جنوب الأردن (Harding, Littmann 1952: 7).

إن النقوش الشمودية كانت ولا تزال محل نقاش وبحث وتحليل من المستشرقين والعلماء العرب المهتمين بالدراسات اللغوية العربية قبل الإسلام منذ حوالي مائة عام وإلى يومنا هذا، نظراً لما لهذه الدراسات من أهمية خاصة لأنها تعتبر من أهم المصادر لدراسة أحوال وتاريخ الجزيرة العربية.

المجتمع في النقوش الثمودية:

يعتبر الثموديون من القبائل العربية الذين عاشوا وتجولوا في الجزيرة العربية، وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم، وخلفوا لنا القليل من الصخور المنقوشة بكتاباتهم ورسوماتها التي تنتشر في جنوب وشمال ووسط الجزيرة العربية. ويمكن القول بأن الثموديين كان لهم الفضل الكبير في معرفة تاريخ وحضارة الجزيرة العربية من خلال ما تركوه لنا من نقوش ورسوم، ومن خلال الأبجدية الثمودية التي بمعرفتها أمكن قراءة وترجمة كتاباتهم.

والمصدر الرئيسي لدراسة المجتمع الثمودي في الوقت الحاضر هي النقوش التي كتبت من قبل أفراد القبائل التي جاءت في الكتابات التي عرفت بالثمودية في المناطق المختلفة من الجزيرة العربية. أمّا المصدر الثاني فهو ما ورد عن ثمود في كتابات الأمم الأخرى مثل الأشوريين، والمصدر الثالث القرآن الكريم الذي وصف لنا قوم ثمود وما كانوا عليه من بغي وجهل في أمور دينهم ودنياهم (الروسان ١٩٩٢: ١٣٥).

فقد تحدث القرآن الكريم عن بعض القبائل وخاصة عاد وثمود، وعندما تذكر قبائل ثمود تذكر إلى جانبها قبائل عاد فكأنهما توأمان، وهما كذلك ولكن في سوء السيرة والمصير. وقصة كل من الشعبين هي في نفس الوقت قصة نبي من الأنبياء عصاه قومه، فكان جزاؤهم سوء العذاب. والآيات كثيرة التي قرنت عاد ونوح بثمود (علي ١٩٧٦: ٣٢٢) كما في سورة التوبة، وإبراهيم، والفرقان، وص، وق، والنجم، والفجر (مهران ١٩٨٠: ٢٧٧).

والقرآن الكريم تحدث عن قوم ثمود، وماذا أغدق الله عليهم من نعم، وكيف عصوا رسول الله، وبين ما كانت عليه ثمود من سعة في العيش ورغد، وجعلهم خلفاء من بعد عاد، وتبوءهم في أرض الحجر يبنون في سهولها قصوراً رفيعة. ثم ذكر القرآن الكريم النبي صالح الذي أرسله الله سبحانه إلى قوم ثمود يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ولكن الغالبية العظمى كفروا برسالته وعتوا في طغيانهم، فأرسل الله فيهم عذاباً عظيماً. ويستدل على ذلك من كلمات "رجفة" و "صيحة" التي جاءت في القرآن الكريم على أن ثموداً إنما أصيبوا بكارثة عظيمة من ثوران البراكين أو من الهزات الأرضية، وذلك محتمل جداً، لأن البقاع التي كانوا يقطنونها هي من مناطق الحرار (علي ١٩٧٦: ٣٣٢). وتقول بعض

الدراسات أن نهاية ثمود كانت حوالي (١٩٠٠ق.م) (عبدالحميد ١٩٧٦: ١١٣).

ويشبه مصير عاد وثمود مصير سدوم وعمورة وبقية مدن الدائرة في عمق السديم التي تقع على رأي كثير من علماء التوراة في جنوب البحر الميت، فقد لاقت هذه المدن وهي خمس على المصير الذي لقيه قوم عاد وثمود، حيث أرسل الله عليهم عذاباً عظيماً (علي ١٩٧٦: ٣٣٢).

وقد ذكر الطبري في تاريخه أن شعراء الجاهلية ذكرت في شعرها عاداً وثموداً وأن أمرهما كان معروفاً عند العرب في الشهرة قبل الإسلام، وأن من يظن أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون عاداً أو ثموداً فإنه على وهم وخطأ (علي ١٩٧٦: ٣٢٣). لم تكن قبيلة ثمود مملكة بالمفهوم الحضاري، و لم تتوطن بشكل دائم في منطقة من المناطق، إلا إذا أخذنا في الاعتبار ما يقوله بعض المؤرخين من أن النبطيين واللحيانيين أصولهم ثمودية، وعندئذ يمكن أن نقول أن هذه الممالك ممالك ثمودية باعتبار أصولها وإن كانت قد اتخذت اسماً جديداً (مهران ١٩٨٠: ٢٦٨).

تبين لنا النقوش الثمودية أن المجتمع الثمودي مجتمع قبلي تكونت من بيوتاته وأهله وعشائره القبائل، وهي مجموع الأمة التي كان لها نظمها الخاصة بها. والأسرة هي أصغر تكوين اجتماعي، ولا يتكون إلا من الأب والأم وأولادهما، ويلي هذه الفئة الأهل وهو التكوين الأكبر من البيت، وهو الفصيلة –أي أهل الرجل وخاصته– والفئة الأخرى العشيرة وجمعها عشائر، أمّا الفئة الكبيرة فهي القبيلة وهي التي تضم الشعب وتجمع العمائر (الروسان ١٩٩٢: ١٣٦، ١٣٧).

وتظهر الكتابات الثمودية أن قوم ثمود كانوا زراعاً وأصحاب ماشية، وأنهم كانوا أقرب إلى أهل الحضر منهم إلى أهل الوبر، فقد كانت لهم مستوطنات

ثابتة استقروا فيها، وكانت لهم معابد ثابتة أيضاً –أي مبنية– وبينهم قوم اشتغلوا بالتجارة (مهران ١٩٨٠: ٢٨٦؛ علي ١٩٧٦: ٣٣٠). وقد وصلت إلينا أسماء ثمودية كثيرة مثل: "أوس"، و "سعد"، و "كربال"، و "عوذ"، و"عذرال"، و "وعياش"، و "بارح"، وغيرها الكثير (علي ١٩٧٦: ٣٣٢). ومن الجدير بالملاحظة أن أسماء الإعلام في النقوش الثمودية تماثل أسماء الأعلام في اللغة العربية الفصحى ولكن مع وجود تأثير عربي جنوبي فيها، وبعض الأسماء الأخرى يوجد بها تأثير نبطي.

ووجدت هناك أيضاً رسومات صاحبت النقوش الثمودية. فقد صورت الرسوم الثموديين على شكل أشخاص ذوي قامة، وكان الرجال ذوي شعور قصيرة، ويلبسون إزاراً وحزاماً في الوسط، وهم حاسروا الرؤوس أو يلبسون غطاء من القش، أو ثوباً وكوفية (الروسان ١٩٩٢: ١٤٠). أمّا المرأة فقد رسمها الثموديون باستمرار ذات شعر طويل وقوام ممشوق تلبس ثياباً طويلة، ولا يظهر من جسدها ما يشين (الروسان ١٩٩٢: ١٤٦). وهناك بعض المناظر التي تبدو فيها المرأة وقد حملت سلة فوق رأسها وارتدت ثوباً طويلاً يترل حتى العرقوب وارتدت خماراً. وكانت المرأة الثمودية تتزين بالحلي والأساور، فضلاً عن العقود التي كانت على هيئة الهلال أو الجمل (مهران ١٩٨٠: ٢٨٧). كل ذلك يدل على أنه كان للمرأة مركز حساس ومرموق في نظر الرجل كأم وزوجه... الخ، وقد زودتنا النقوش الثمودية بطائفة من أسماء النساء التي وردت في نقوش العشاق، أو في نقوش النساء أنفسهن (الروسان ١٩٩٢: ١٤٦).

وكان للثموديين أعياد، وكانت بمثابة مواسم تجارية دينية اجتماعية تقع في فصول السنة الخصبة –مثلما كان الحال عند بقية العرب–. فقد قال عبيد بن شرية في مروج الذهب: "كان لثمود عيد في كل سنة، يخرجون فيه إلى بعض

نزهاتهم بأوديتهم، فيخرجون بالخمر والطعام والأجزار، ويخرجون معهم أصنامهم التي يعبدونها، ويقيمون هناك أياماً يأكلون ويشربون ويلعبون، وتضرب لهم القيان بالدفوف والمعازف، ويجتمعون لذلك العيد من قراهم في ذلك الموضع لذلك اليوم" (عبدالحميد ١٩٧٦: ١١٤).

١. الزراعة والرعي والصيد:

تشير النقوش الثمودية إلى الحياة المستقرة التي كان يحياها القوم، فقد ظهر أن قسماً من الثموديين اشتغل بالزراعة التي كان لها دور هام في حياتهم (البكر ١٩٧٨: ١٢٦). فلقد وجد رسم بجانب نقش ثمودي يبين منظراً زراعياً عبارة عن رجال مع محراث يجره حيوانات —قد يكونان ثورين-، وقد يكون الرسم مضافاً في وقت لاحق لولا أنه مصاحب لنقش ثمودي.

ولا شك أن الأرض التي يقطنها الثموديون كانت وفرة وخصب، حيث تدلنا الآيات القرآنية على أن قوم صالح (الثموديون) كانت أراضيهم ذات بساتين، وعيون، وسهول فسيحة فيها أنواع الزروع والنخيل الرطب اللين (الروسان ١٩٩٢: ١٤٠). وهناك ما يشير إلى أن القوم قد عرفوا زراعة العنب بدليل وجود الاسم "عناب" أي تاجر العنب، وتشير الرسوم المتعددة لشجرة النخيل إلى أن ثمارها ربما كانت الغذاء الرئيسي للثموديين. وقد عرفوا أيضاً زراعة القطن بدليل وجود الاسم "برس" أي شعر القطن والاسم "هلق" أي هلاج القطن، وهناك ما يشير إلى معرفتهم بزراعة البصل والبخور والورود (مهران ١٩٩٤: ٣٤٠).

أمّا الرعي فهو حرفة معروفة في الجزيرة العربية منذ القدم، ومن الثموديين مـــن قام بهذه المهنة وخاصةً البدو منهم الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للرعي والمياه، فتركوا نقوشاً هنا وهناك، وذكروا أنهم حلوا هنا وباتوا هناك، وتـــيقظوا في ذلك المكان وهكذا (الروسان ١٩٩٢: ١٤١). وعرف الثموديون الحـــيوانات واســـتخدموها في الـــزراعة والرعي والركوب والتنقل مثل الجمل والحصان والحمار والماعز والأغنام، حيث وردت رسومات لخيول مسرجة وغير مسرجة يمتطيها الفارس ليحارب أو يقاوم حيواناً متوحشاً، ورسموا الجمل والناقة الأنثى (الروسان ١٩٩٢: ١٥١).

وكان الصيد أيضاً من مظاهر الحياة الضرورية في حياة الثموديين، غير أنه لم تصلنا نقوش تذكر الصيد مباشرة سوى القليل، لكن ترافقها مناظر صيد بكثرة وهذه الرسوم توضح بعض مناظر الصيد في الحياة (الروسان ١٩٩٢: ١٤٢). فقد عثر على ثلاث رسومات في الجبال الداخلية لسفن كان يستعملها القوم في صيد الأسمـــاك، وقـــد عثر على سفن من نفس الطراز في صخور وادي الحمامات في صحراء مصر الشرقية بجوار بعض النقوش الثمودية، الأمر الذي يحمل على الظن بأنها مراكب استعملت في عبور البحر الأحمر (مهران ١٩٨٠: ٢٨٧).

٢. التجارة

كان للثموديين في الشمال قوة عظيمة ونشاط تجاري مزدهر، واستطاعوا عن طريق نفوذهم ونشاطهم التأثير على حضارات الشمال. وإذا كانت نقوشهم يعـــود بعضها إلى قرابة ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، فيمكن أن نتصور ما كانت

علــيه مجتمعاتهم النشطة خاصة وأنهم تجولوا في أرجاء الجزيرة العربية وتركوا لنا الكثير من النقوش والرسوم (الشتلة ١٩٨٠: ١٨٥).

ولمــا كـــان موطن الثموديين على الطريق التجاري "طريق البخور" فقد امتهن قسم منهم التجارة وزاولها (البكر ١٩٨٧: ١٢٦)، وكان فريق منهم بدواً رحـــلاً، ومن بينهم من كان يعمل في تجارة القوافل أو من "أهل العير" على حد تعـــبير الـــنقوش (مهران ١٩٨٠: ٢٨٧). والبعض منهم عملوا كوسطاء نظراً لموقعهم الهام في أعالي الجزيرة العربية وعلى الطريق التجاري الذي يربط جنوب الجزيـــرة العربية بشمالها، وببلاد الشام ومصر. فقد وجدت نقوش الثموديين في اليمن، وفي سيناء، وفي العقبة وكلها مراكز تجارية هامة في تلك الحقبة (الروسان ١٩٩٢: ١٤٧). وقد كانت مدين —وهي المدينة التي ذكرها بطليموس على أنها مسكن الثموديين— ذات مياه كثيرة في شمال البحر الأحمر إلى الجنوب الشرقي من شبه جزيرة سيناء، وكانت بمركزها تعتبر محطة تجارية بين الحجاز والشام ومصر وما يتصل بها (فروخ ١٩٦٤: ٤٨).

فمـــن الواضـــح أن معظـــم سواحل البحر الأحمر كانت تحت سيطرة الثموديين، وبالتالي تحكموا في طرق التجارة وتنظيمها وتوفير الحماية لها. وكانت لهـــم قـــوة كبيرة في شمال الحجاز والجزيرة العربية حيث أنهم كانوا منتشرين في معظـــم تلـــك المـــناطق بقوتهم ونفوذهم، ويبرهن على ذلك العديد من النقوش والرســـوم الثمودية التي تركوها لنا (الشتلة ١٩٨٠: ١٨٦). فقد وجدت رسوم لقـــوارب، ومن الممكن أن تكون هذه القوارب للتجارة، وإذا كان الأمر كذلك فهـــذا يدل على أنهم بلغوا مبلغاً متطوراً في فن التجارة البرية والبحرية (الروسان ١٩٩٢: ١٤٨).

ولكن قوم ثمود لم يبلغوا في ميزان النحوّ التجاري ما بلغه آخرون من نفس المنطقة، كما أن الثموديين لم يستطيعوا تكوين مملكة بالمفهوم الحضاري في يوم من الأيام، بل أهم فشلوا أن يفرضوا سلطتهم الإدارية على المناطق التي وقعت تحت سلطتهم يوماً ما لسبب أو لآخر.

٣. الحرب والقتال:

لم تشر النقوش الثمودية إلى حروب هامة دارت بينهم وبين أقوام أخرى، ولكن من النصوص الآشورية نعرف أهم انتصروا على قوم ثمود، وأجبروهم على دفع الجزية، وأخذوا منهم الماشية كغنائم، كما أشار سرجون الثاني في النص العائد له (الروسان ١٩٩٢: ١٤٩).

وقد ذكرت بعض المصادر الأخرى أن الثموديين اشتركوا في حروب الرومان بقيادة الإمبراطور جستنيانوس الذي استخدمهم في بداية القرن السادس الميلادي كفرسان مهرة في جيوشه، نظراً لما كانوا يتمتعون به من قوة حربية بارعة، ومهارة في ركوب الخيل، واستخدام أحدث وسائل القتال وقتذاك. الأمر الذي جعل الأباطرة الرومان يستعينون بهم، لا كقوات احتياطية أو للإمدادات بين صفوف جيوشهم لكن استخدموا كقوات من الدرجة الأولى في القتال (الشتلة ١٩٨٠: ١٨٧).

ويرى بعض الباحثين أن آخر ذكر ورد في الوثائق لقوم ثمود كان في القرن الخامس للميلاد، حيث ورد أن قوماً منهم كانوا فرساناً في جيش الروم (البكر ١٩٧٨: ١٢٧؛ علي ١٩٧٦: ٣٢٦). فهناك إذن ما يدل على أهم كانوا

فرساناً في جيش الروم، وأنهم كانوا يعسكرون في مصر وكذا في فلسطين (مهران ١٩٨٠: ٢٨٢).

وجدت الكثير من الرسومات المصاحبة للنقوش الثمودية التي تصور بعض الأسلحة التي كان يستخدمها الثموديون في حروبهم أو قتالهم، فقد وجد رسم مهم جداً يمثل صورة لشخص يمتطي جملاً عليه الركاب "الشد" التقليدي المعروف حالياً، إضافة إلى وجود أسلحة على هذه الركاب أغلب الظن أنها كانت تمثل رمحاً وسيفاً، والجمل يقوده راكبه بواسطة لجام من الحبل يمسك به بيده اليسرى، بينما يحمل في يده اليمنى عصا طويلة يلوح بها من أجل القيادة السريعة (المحيسن ١٩٨٨: ٧).

٤. الديانة:

جميع الأمم والشعوب كانت لها معتقداتها وطقوسها الدينية التي مارستها على الدوام، ومنهم الثموديون. فالديانة الثمودية متشابكة معقدة، حيث أن التجمع الإلهي عندهم يدل على ديانة وثنية شركية قائمة على تعدد الآلهة الذي ساد جنوب الجزيرة العربية، وبلاد ما بين النهرين، وبلاد الشام، ألا وهي عبادة الثالوث المقدس: القمر والشمس والزهرة، إلى جانب آلهة عديدة أما صفات لهذه الآلهة الكبرى أو أنها فروع منها (الروسان ١٩٩٢: ١٥٥).

ومن أصنام ثمود: الصنم "ود- جد هد" أو "جد-هدد"، "وايليا"، و"شمس"، و"مناف"، "ومناة"، "وكاهل"، و"بعلة"، "ورضو" (علي ١٩٧٦: ٣٣١) الذي كان من أقدم الآلهة وأهمها في شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام، والذي أعطي العديد من الصفات من قبل الثموديين أهمها الرفعة أو السمو

(البشابشـــة ١٩٩٤: ٢٦). وقد كان هذا الإله يعبد عند الثموديين والصفويين ســـواء، ولكن كان الاختلاف بينهم هو تحديد طبيعة الجنس لهذا الإله (البشابشة ١٩٩٤: ٦).

ومـــن الأصـــنام الأخـــرى: "عـــثيرت"، و"وتن"، و"هادي"، و"بجل"، و"عسحرد"، و"تجر"، و"دبر" (علي ١٩٧٦: ٣٣١)، و"أحور"، و"إله". وهناك أيضاً "خرج"، و"ستار"، و"سمن"، و"عوص"، و"إله"، وغيرها (الروسان ١٩٩٢: ١٥٩-٧٧) وقد ذكره الثموديون منفرداً ويصفونه بصفاته، أو أنهم يوردونه دون تحديد لمطلب أو غاية من ذكرهم له (طلفاح ١٩٩٣: ٤٢).

هـــناك نصوص ثمودية يظهر عليها أثر عبادة الإله "صلم" (Salm)، وقد كانـــت تـــيماء من أهم الأماكن التي كانت تقدس هذا الإله حوالي سنة (٦٠٠ ق.م) (مهران ١٩٨٠: ٢٨٨؛ علي ١٩٧٦: ٣٢٩)، ويبدو أن الثموديين أخذوا عبادة "صلم" عن أهل تيماء (الروسان ١٩٩٢: ١٧٣). وعثر في نجران أيضاً على نقشـــين ســـبئيين ورد فيهما اسم الإله "صلم" في العقد الذي استوطن فيه الملك البابلـــي نبونيد بتيماء أي في الفترة (٥٥٥-٥٤٦ق.م) بعد حملته المشهورة التي احتل فيها تيماء، وديدان، وخيبر، ويثرب (مهران ١٩٨٠: ٢٧٠). وقد وجدت أسماء بعض الآلهة التي كان يتعبد لها أهل تيماء منقوشة في النصوص الثمودية، مما يدل على أن قوم ثمود كانوا يتعبدون لها كذلك، وأن هناك صلات ثقافية ودينية بين تيماء وثمود (علي ١٩٧٦: ٣٣٠).

وأحـــياناً سمى الثموديون أطفالهم بأسماء الآلهة تيمنا وتبركاً ورهبة وخوفاً مـــنها، وحتى يكون هذا المولود مباركاً ذا حظ سعيد في حياته شبيهاً بالآلهة التي

تسمى أو سمي بها. وقد يراد للطفل أن يصبح شريراً أو بطلاً في الحروب فيسمى باسم إله الحرب، أو يكون العكس للعدل والرحمة (الروسان ١٩٩٢: ١٥٤).

وقد كان لهذه المعبودات سدنة يخدمونها، يعرف الواحد منهم باسم "قسو" أي قس (مهران ١٩٨٠: ٢٨٨). ومن الجدير بالذكر أنه قد وجد نقش ثمودي لا يعرف تاريخه رسمت فيه دائرة داخلها نقش يشبه الصليب، وهذا أقدم شاهد عرف حتى الآن عن انتشار المسيحية في شمال شبه الجزيرة العربية (البكر ١٩٧٨: ١٢٦).

٥. المدافن:

اتجه الثموديون إلى حفر قبورهم في بيوتهم، ولجأوا إلى التحنيط ولبس الأكفان، وقد كانت أكفانهم من الانطاع وخيوطهم من المر (عبدالحميد ١٩٧٦: ١١٧)، وكانوا أحياناً يلفون الميت بالجلد ثم يدفنوه. وقد وضع الثموديون الرجوم فوق قبورهم في الصحراء وفي بعض الأوقات وجدت نقوش على هذه الرجوم (المحيسن، ١٩٨٨: ٧). وهذه العادات من الدفن لها ما يماثلها خاصة عند الأنباط، حيث شوهدت في بعض المقابر النبطية على سبيل المثال في خربة الذريح أمثال هذه العادة في الدفن.

الفصل الثالث

الصفويون

- الصفويون
- موطن الصفويين
- النقوش الصفوية
- المجتمع في النقوش الصفوية
- الزراعة والرعي والصيد
- التجارة
- الحرب والقتال
- الديانة
- المدافن

الصفويون

الصفويين اصطلاح أُطلق على قبائل عربية عاشت في الجزء الجنوبي من بلاد الشام في منطقة عرفت بالصفات أو ارض الصفاة. (علي ١٩٦٩: ١٤٢). وهي أرض بركانية تغطي قشرتها الخارجية حتى اليوم صخور سوداء (Macdonald 1992: 418; WINNET 1957:1)

تكونت بتراكم مساحات شاسعة اثر تفجر بركاني في عصور جيولوجية سحيقة (علي ١٩٦٩: ١٤٢)، هذه الحجارة اعتبرت كسطح مناسب للكتابة لهؤلاء الصفويين، الذين استخدموها لنقش نصوصهم عليها (Winnet 1957:1).

أطلق مصطلح الصفويين "دي فوجة" (ديسو ١٩٥٩:٢٦) الذي نشر أول قائمة من النصوص الصفوية حوالي عام ١٨٧٧ استناداً إلى فكرة بسيطة، وهي أن هناك نصاً إغريقيا يشير إلى أن الإقليم الذي عثر فيه على تلك النقوش كان يطلق عليه اسم "صفائن" (Safathene) (مهران ١٩٩٤: ٤٧؛ الروسان ١٩٩٢: ١٩٧؛ ديسو ١٩٥٩: ٢٧) وورد أيضاً اسم اله عرف " بزيوس الصفوي" (Zeus Safathenos) (علي ١٩٦٩: ١٤٣) ذكر في نقش يوناني عثر عليه في حمد في جبل الدروز، حيث وصف الإله زيوس بأنه اله الصفويين (البشاشبة ١٩٩٤: ٢١). ولا يزال إلى اليوم يطلق على العرب الذي يعيشون حول الصفا اسم عرب الصفا (ديسو ١٩٥٩: ٢٧) والصفويون من اصل عربي جنوبي بدليل اصل وتفرع كتاباتهم العربية عن العربية الجنوبية وبصفات عديدة من أشكال الحروف وبعض الملامح اللغوية. وهم ليسوا بقبيلة واحدة ولا بجنس معين، وإنما قبائل متنقلة كانت تنتقل في هذه الأرض الواسعة في ازمنة مختلفة

متباينة، وفي مواقع يمكن تحديدها حسب أماكن انتشار النقوش التي خلّفوها على الرجوم العالية والكبيرة، وعلى الأحجار المختلفة الأحجام والألوان (الروسان ١٩٩٢: ١٩٨).

وهناك مَنْ يعترض على كلمة صفويين، ويؤكد أن أصحاب النقوش الصفوية لا يسمون صفويين أو صفائيين، حيث أن هذه النقوش عثر عليها في العقود الأخيرة في أماكن جديدة مختلفة غير حرة الصفا، ولذا فإن التسمية عبارة عن تسمية اصطلاحية لا تدل على أصحاب تلك النقوش ولا على أرضهم كلها أو مجالات انتشارهم كاملة وهذا ما يجب التنويه له.

موطن الصفويين

سكن الصفويون في الإقليم الجنوبي لدمشق أو ما عرف بالحرة والحرة كل مجموعة بركانية محوطة بمقذوفاتها تسيل حولها كتل وأحجار بركانية، فيسميها العرب الحّرة – (ديسو ١٩٥٩: ٢٥)، وكانت بها وسائل العيش متوافرة من أودية خصبة، ومروج ترعاها الماشية.

ومن أهم هذه الأودية "وادي راجيل"[(١)] الذي يمتلئ بالماء طول الشتاء والربيع وبعض الخريف ويجف في الصيف (الروسان١٩٩٢: ٢٠٣) وهو يختفي نحو الجنوب في مستنقعات ماؤها مالح على مقربة مـــن قلعة الأزرق (ديسو

(1) في العهد الروماني أنشئت الكثير من الحصون الرومانية في حرة وادي راجيل في الأراضي الصفوية، وهي من الشمال إلى الجنوب نقطة جبل سيس، قصر الأبيض التمارة، دير الكهف، وقلعة الأزرق، وهذه الحصون ترجع في نظام بنائها إلى نوع واحد – ما عدا القصر الأبيض الذي يختلف عنها في زخرفتها- (ديسو ١٩٥٩: ٢٩–٣١).

١٩٥٩: ١٧). وقد وجد في هذا الوادي العديد من النقوش التي تدل على أنه كان مشتى للصفويين، ولا يستبعد أنه كان طريقاً للقوافل التجارية من الجنوب إلى الشمال (الروسان ١٩٩٢: ٢٠٣).

وقد كان الصفويون يعيشون عيشة شبه مستقرة متحضرة، فكانوا يقضون الشتاء في الحّرة حول الصفا من قلعة الأزرق حتى جبل سيس، وفي الصيف كانوا يصعدون بقطعانهم إلى المنحدر الشرقي من جبل حوران، مثلهم في هذا مثل عرب الصفا. (ديسو ١٩٥٩: ١٠٢). وهناك وادي الشام ووادي غرز، وهما من المواطن التي ذكرت في النقوش الصفوية والتي لا يوجد فيها ماء جارٍ إلا في الشتاء ويمكن القول أن الصفويين استعمروا السفح الشرقي لجبل حوران، مثلما أحتلّ الأنباط إقليم حوران بما فيها بصرى وغيرها من المدن (ديسو ١٩٥٩، ٧، ٥٥).

النقوش الصفوية:

الصفوية هو الاصطلاح الذي أطلقه هاليفي على الكتابات التي عثر على عدد منها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (عبد الحميد ١٩٧٦: ١٦٤)، وهي تتكلم اللغة الشمالية القديمة ومكتوبة من قبل البدو القدماء في صحراء (Syro Arabian) (Macdonald 1992: 418; winnet 1957:1)، وتمثل الامتداد الشمالي لنصوص الجزيرة العربية وواحدة من أهم الصيغات التطورية لها (Winnet 1957: 1).

أما أصل هـــذه الكتابات فمن العربية الجنوبية (الروسان١٩٩٢: ٢٠٩)، واللغة الصفوية المستخدمة فيها لهجة عربية من لغة القرآن الكريم (مهران

١٩٩٤: ٤٨)، أو هي عربية الكتابة كما يدل على ذلك أقدم نص يرجع إلى القرن الرابع الميلادي وهو نقش النمارة (ديسو ١٩٥٩: ٨٦).

يبلغ عدد حروف الأبجدية الصفوية (٢٨) حرفاً، وتشبه إلى حد ما حروف الكتابة خط المسند (مهران ١٩٩٤: ٤٧)، وهي لدى علماء اللغات القديمة اكمل الأبجديات السامية المعروفة، وأقربها إلى ما يسمى باللغة الأصلية (Proto) وقد تمكن هاليفي من معرفة ستة عشر حرفاً، وتعرف بريتوريوز إلى خمسة حروف، ونجح ليتمان في قراءة سبعة، وبذا اكتملت قراءة جميع حروفها الهجائية (مهران ١٩٩٤: ٤٨).

والكتابات أو النقوش الصفوية عبارة عن مجموعة من الخطوط التي لا يعتني بنقشها، وفي كتابتها خفة وتكسير، ويمكن أن ينقشها على الحجارة والصخور كل من تعلم قدراً من القراءة دون أي إتقان. والملاحظ أن الكم الأكبر من هذه النقوش عبارة عن مخربشات (Graffiti)، وهي وسيلة للتعبير عن النفس اكثر منها وسيلة للاتصال (Macdonald, 1992:420).

أما الخط الذي كتبت فيه الكتابات الصفوية فهو خط عربي ولد من الآم التي نسلت الخط العربي الجنوبي (علي ١٩٦٩: ١٤٤)، وهو قريب من الخطوط العربية الجنوبية والخطوط العربية الشمالية التي هي: الديدانية، اللحيانية، والثمودية (Macdonald 1992: 418). وهذا الخط يدل على أن الصفويين وأمثالهم من الأعراب لم يتأثروا بالثقافة الآرامية مع قربهم منها واتصالهم بها، وطغيانها على الثقافات الأخرى في مدن العراق وفي بلاد الشام، و لم يستعملوا قلم "بني ارم" كما فعل "أهل المدر" المقيمين في مدن العراق والشام وقراهما (علي ١٩٦٩: ١٤٤). ومن الملاحظ أن النقوش الصفوية بشكل عام قريبة جداً من

حيث الخط، واللغة، وأسماء الآلهة من المخربشان الثمودية، وبالنسبة لتأريخ هذه النقوش الصفوية فأنه أمر غير مؤكد، ولكن هناك موافقة عامة بأن اقدم هذه النصوص ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد (Winnet 1957:1)، ويتفق مع هذا الرأي ليتمان (Littmann) وبتلر(Butler) (Winnet 1957:1) . ويجمع بعض الآثاريين على أن النقوش الصفوية تؤرخ بين القرن الأول قبل الميلاد والرابع بعد الميلاد (Macdonald 1994: 421)، ولكن أرضية الشك لا تزال كبيرة في هذه المسألة. فمجموعة من النقوش الصفوية ترجع إلى تواريخ مؤكدة في القرن الأول والثاني والثالث بعد الميلاد (عبد الحميد ١٩٧٦: ١٦٤؛ Winnet 1957: 2) وبعضها الآخر الذي يذكر الأنباط والرومان يمكن إدراجه تحت هذه القرون، ولكن لا يوجد دليل لتأريخ البقية الضخمة الباقية (Winnet 1957: 2). وبعض هذه النقوش أُرخت بواسطة أحداث عامة مهمة (Macdonald 1992, 421) وبعضها حملت تأريخا رقماً أو كتابة، ولكن الذي يتفق عليه الباحثون هو أن هذا التأريخ حسب التقويم البصروي نسبة إلى بصرى (أبو عساف ١٩٩٧: ٦٦).

بدأت رحلة الكشف عن النقوش الصفوية منذ سنة ١٨٥٧ ميلادي (زيدان ب.ت: ١٤٩؛ Macdonald 1992: 418) من قبل المستشرقين والرحالة الذين قدموا إلى بلاد الشام بحثاً عن هذه المواطن الجديدة، وكان أول من قدم ديار بلاد الشام ووصل إلى حرّة الصفا سيرل جراهام (Cyril Graham) سنة ١٨٥٧م. الذي جمع نقوشاً عديدة لم يعرف ما هي لكنه لفت الأنظار إليها بعد أن نشر ما كان قد استنسخه في مجلة جمعية المستشرقين الألمان (أبو عساف ١٩٩٧: ٦٦)، ميليك ١٩٨٨: ٢٧٩؛ ديسو ١٩٥٩: ٥٨؛ Winnet 1957: 1)، وفي نفس العام جلب الورسي ويتزستن (J.G, Wetzsten) في نهاية رحلة قام بها في نفس المواقع التي زارها جراهام ثلاثمائة نقش، كما التقطت

البعثة الفرنسية W.H. Waddington عام ١٨٨١ خمسمائة نسخة (Milik ١٩٨٨: ٢٧٩).

بعد ذلك توالت الاكتشافات والقراءات من قبل علماء كثيرين كمولر (Muller)، وواد نجتون (W. Waddington) وهاليفي (Joseph Halevy) ودوفوج (De vogue)، ورينيه ديسو (ReneDessaud) وتشارلز توري (Charles C.. Torrey)، وريكمنس (G. Ryckmans)، وليتمان (Littmann) الذي كان أول من لاحظ الأبجدية الصفوية محتوية على ثمان وعشرين حرفاً بدلاً من ثلاث وعشرين حرفاً كما كان معروفاً في السابق (Macdonald 1992: 418)، وهي تشبه الأبجدية العربية، وعلى هذا فقد اصبح هناك صلة وثيقة بين الصفوية وبين الكتابات العربية الجنوبية (ديسو ١٩٥٩: ٦٢) ونذكر هنا هاردنج (Harding) الذي استكشف ونقب في تلة هاني، التي اشتهرت فيما بعد عن قديس صفاوي من العصر الإمبراطوري الرومان قُتل بسهم من قطاع الطرق، وكان له دور كبير في تدوين النقوش الصفوية (Milik ١٩٨٨: ٢٨٠).

وقد جمعت الكتابات الصفوية من أراضي واسعة تمتد من حماة في سورية إلى نهر الفرات في العراق في الشرق، والى فلسطين والمملكة الأردنية الهاشمية، فأعالي الحجاز (علي ١٩٦٩: ١٤٣). فقد وجدت آلاف النقوش الصفوية في المنطقة الشرقية من دمشق والتي تعرف بالحرّة — أو صحراء البازلت — الممتدة جنوب وشرق جبل الدروز (Macdanald 1992: 418)، وحول مدينة حماة وشرقاً حتى الأراضي التي يطلق عليها الحماد إلى الشمال من تدمر. أما في الأردن فقد اكتشفت هذه النقوش في أماكن عديدة كالصفا، ووادي مقاط،

ومدائن صالح، ودير الكهف (الروسان ١٩٩٢". ١٩٩: ٢٥١)، والربّة، والحّرة، وأماكن قرب الحمة، وخصوصاً في شرق الأردن (Winnet 1957:1) وهي باختصار تتبع غرباً أطراف الحدود الحضرية وتتوقف شرقاً عند الأرض الجيرية في حمد، أما في الشمال فتمتد حتى جبل سيس وتصل جنوباً حتى قلعة الأزرق (ديسو ١٩٥٩: ٥٦). ومجموعة كبيرة من هذه النقوش موجودة في المتاحف الأردنية، ولا تزال النقوش الجديدة تتزايد وتحتاج إلى دراستها نظراً لما تحتويه من العديد من الكلمات والعبارات الصفوية الجديدة.

وفي العربية السعودية توجد النقوش الصفوية على مجموعة من التلال بجوار "بدانا" (Badana) الموجودة في مكان معين من بادية الجوف التي كانت تدعى "هاد دومات" (Had – Dumat) (Milik ١٩٨٨: ٢٨١). أما في العراق فتوجد في وادي حرّان، وعلى الحدود السورية الأردنية(الروسان ١٩٩٢: ٢٥١).

وفي شمال غرب الجزيرة العربية عُثر على نقوش صفوية في كل من غدير بدينة، وعرعر، وعثرا، وسكاكا والشاطئ، وغيرها. أي أن هذه النقوش انتشرت في المناطق التي كانت تمر بها الطرق التجارية، وبين ثلاثة مراكز حضارية في ذلك الوقت، هي حوض نهر الفرات، بلاد الشام وشمال الحجاز، ووادي سرحان (الروسان،١٩٩٢: ٢٠٠).

ومما سبق نستنتج أن النقوش الصفوية لم تكن من منطقة الصفا بل انتشرت في جميع أرجاء الجزيرة العربية، ومع ذلك لا زلنا نعرفها بالصفوية نسبة إلى منطقة تلول الصفا الواقعة جنوب شرق دمشق (أبو عّساف ١٩٩٧: ٦٤)

ومن الجدير بالذكر، أن بعضاً من النقوش الصفوية وجدت في مدينة بومبي في ايطاليا .

وأكبر كمية من النقوش الصفوية وجدت غالباً على الطرق الرئيسية وعند مناطق المياه كالعلا، ومدائن صالح، وتبوك، ورم، وعرجا، مع مجموعات صغيرة على بعد قليل من الطرق الرئيسية ولكن قريبة من المياه كهضبة الحمراء، وكلكة ، وكيلوة (Harding, littmann 1952:7).

والكتابات أو النقوش الصفوية كتابات شخصية في موضوعات متعددة، ليس بينها وثائق تتعرض للمسائل العامة مثل القوانين والحروب بين الدول بتفصيل وتبسيط ووضوح، وذلك لأن الكتابات الصفوية كتابات أفراد كُتبت تعبيراً عن أمور شخصية لا غير (علي ١٩٦٩: ١٤٣). فبعض منها يُسجل اسم الكاتب، وماذا كان يفعل، وبماذا كان يشعر، وهناك الكثير من التفاخر والأدعية، ولكن ليست مذكرات، أو تاريخاً أو آداب لغة. فمن المعقول أن معظم الكتابات كُتبت كوسيلة لتمضية الوقت أثناء رعي الماشية، أو مراقبة العدو، أو أثناء اللعب، لأن رسوماتهم تدل على أنهم كانوا صيادين مهرة (Macdonald 1992:420).

ويمكن أن تُصنف النقوش الصفوية إلى نقوش للذكرى وهي عادة ما تكون شخصية، أو نقوش ملكية للأشياء من أرض ومرعى وعيون، ونقوش جنائزية، وكتابات أو نقوش دينية أو نقوش توسل للآلهة لوصل حبيبة يعشقها صاحب النقش، أو الشفاء من مرض ما. وموضوعات أخرى مثل النقوش التاريخية كذكر الحروب بين الأمم مثل حرب النبط والروم، والروم والفرس وغيرها (الروسان ١٩٩٢: ٢٥١). ومن هذه الكتابات أيضاً عرفنا بأن الصفويين

يترعون نزعة شديدة إلى تخليد أنفسهم وإبقاء ذكراهم وذكرياهم، فأرخوا بكل حادث معروف عندهم حتى بحادث ولادة ماشيتهم، أو مقتل احدهم، أو غرامة مالية على احدهم، أو سفر احدهم (علي ١٩٦٩: ١٤٧).

بعض هــذه النقوش كانت منسوخــة بشكــل غير كامــل أو سيء (Milik ١٩٨٨: ٨٢)، ولكنها بالرغم من ذلك تعطينا معلومات هامة عن المجتمع الصفوي بشكل خاص والمجتمعات الأخرى القريبة منه بشكل عام.

ومما لا شك فيه أن الكتاب الصفويين استخدموا آلات حادة في نقش الكلمات في الصخر كالسكاكين والخناجر وغيرها من الآلات الحادة المسنونة، ويتجلى ذلك في أشكال الحروف الغليظة والدقيقة الغائرة والسطحية التي نتجت عن استعمال هذه الآلات (أبو عساف ١٩٩٧: ٦٥). وقد استعمل الصفويون عند كتابة النقوش الصفوية عدة طرق للتغلب على الصلابة الشديدة لتلك الصخور البركانية، وخير النصوص التي نُقشت كانوا يستعملون في حفرها منقاشاً بارداً، فكانت الحروف صغيرة والشق ضعيف عميق نسبياً، وأحياناً أخرى كانت الطبقة العليا للحجر هي التي تخدش وحدها بسن مدبب، وأحيانا حُفرت النقوش حفراً (ديسو ١٩٥٩: ٥٧). وكان النقاشون الصفويين يدونون النصوص على جميع أنواع الصخور أو على الأحجار، دون أن يعنوا أية عناية بتنظيم الكتابة (ديسو ١٩٥٩: ٦٢).

وقد وردت رسومات مختلفة صاحبت النقوش الصفوية يقول ليتمان (littmann): " إن الذي رسم المشهد هو راوية أو حكواتي، فالمشهد هو لقصة أو حكاية كان قد رواها أو حكاها الشخص المذكور إلى جانبها، وهذا مألوف

عند البدو وعند قبائل الاسكيمو الذين رسموا صوراً في الثلج ليرووا حكاياتهم (أبو عسّاف ١٩٩٧: ٦٦).

ومن المثير معرفة ما هي العوامل التي جعلت عرب الصفا ينقشون آلاف الكتابات على الأحجار وانهم كانوا يقلدون المرتزقة اليونان المتمركزين في المراكز الأمامية في سوريا، والذين دون الكثير منهم أسماءهم على حجارة الصحراء (Winnet 1957:1). ولكن هنالك موافقة عامة على أن هذه المخربشات اليونانية (Graffiti) تؤرخ إلى ما بعد تكوين المقاطعة العربية من قبل تراجان (Trajan) في السنة (١٠٥) بعد الميلاد، أما الكتابة الصفوية فقد بدأت في القرن الأول قبل الميلاد (Winnet 1957:1-2).

المجتمع في النقوش الصفوية

تدل النقوش الصفوية على انهم أعراب رعاة، يتنقلون من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ، ويستحق أن نسميهم أشباه بدو وذلك لضآلة ارتحالهم (ديسو ١٩٥٩: ٢١). وقد وصف هذا المجتمع بالبداوة، وأطلق عليه بعض التسميات مثل البدو – الصفويون (الروسان ١٩٩٢: ٤٠٠). وهذا التحرك والتنقل الدائم من مكان لآخر كان أما طلباً للرعي، أو لتأدية الواجبات الدينية، أو لقضاء الحاجات التجارية والاقتصادية، أو بسبب الصراع بين الأفراد داخل القبيلة أو بين القبائل والقوى الأخرى المحيطة بها. وغالباً ما كان البدوي الذي يقيم في اقليم متحضر يفقد لغته وعاداته، حيث أنهم كانوا يحتفظون بلغتهم ولكنهم لا يلبثون طويلاً حتى يتركوها (ديسو ١٩٥٩: ٢١). وقد دونوا

خواطرهم أحياناً على الأحجار وتركوها في مواضعها، ومنها أصبحنا نُلم بعض الشيء بأحوالهم وأخبارهم (علي ١٩٦٩: ١٤٢).

ولقد كان الصفويون بحكم نزولهم في أطراف بلاد الشام على اتصال بالروم، بل اضطروا للخضوع لحكمهم والاعتراف بسيادتهم عليهم، والتوغل شمالاً وجنوباً في بلاد الشام بحثاً عن الماء والكلأ و القوت. كما اضطروا إلى مراجعة قرى بلاد الشام ومدنها لبيع ما عندهم من فائض من فتوح أيديهم ومن حاصل حيواناتهم (علي ١٩٦٩: ١٤٦). وقد ساعد الصفويون الرومان مساعدة جدية حين تقلصت المملكة النبطية وأصبحت ولاية رومانية في جزيرة العرب، وهذا ما يدل عليه احد النقوش (ديسو ١٩٥٩: ١٠٣). وتعتبر النقوش الصفوية من اشهر المصادر المكتوبة في إيضاح الحركات والحياة اليومية للنبطيين واتباعهم – حلفائهم، والمتآلفين معهم، وأقل ما يقال عنها أنها ترقى إلى مصاف المسكوكات الملكية، والى النقوش والكتابات النبطية والآرامية، والى الملخصات الأدبية القديمة منذ الآشوريين وحتى الرومان (Milik ١٩٨٨: ٢٧٨).

كان الطابع العام لهذا المجتمع هو النظام القبلي الذي يرأسه شيخ القبيلة، ويعاونه أبناؤه وأفراد قبيلته في حربه وغزوه وسلمه وترحاله. وفي الكتابات الصفوية لم يعثر على اسم ملك – عربي أو غير عربي– و لم يعثر فيها على موضوع سياسي يشير إلى الحالة السياسية التي كانت في العراق، أو في بلاد الشام، أو في جزيرة العرب في تلك الأيام، و لم يتمكن أيضاً من الخروج منها بأية فكرة عن نوع الحكم الذي كان يعيش فيه الصفويون (علي ١٩٦٩: ١٤٧).

وأمدتنا النصوص الصفوية بالكثير من أسماء الأعلام، لأن العربي شديد التمسك بنسبه، فالنسب هو الذي يقرر اشتراك العربي في هذه الموقعة أو المعركة،

وهو الذي يسيطر على جميع الأعمال في حياته (ديسو ١٩٥٩: ٢٢). ولكن لا توجد دراسة كاملة للأسماء التي وردت في النقوش الصفوية، بالرغم من أن ليتمان (littmann) ومولر (Muller) أعطوا مناقشات مفيدة جداً في هذا الموضوع (Macdonald: 1992:420) فالمشكلة التي كانت مثار نقاش بين العلماء، هي التعرف على الأدوات التي تميز أسماء القبائل والعشائر عن أسماء الأعلام (الروسان ١٩٩٢، ٢٦١).

ويمكن تقسيم أسماء الأعلام إلى قسمين كبيرين:

١. الأسماء البسيطة: وهي المكونة من كلمة واحدة، إسماً، أو صفة، أو فعلاً.

٢. الأسماء المركبة: وهي الأسماء المبنية من عنصرين أو ثلاثة عناصر، وتكون جملة (ديسو ١٩٥٩: ٩٠).

وقد لاحظ ليتمان أثناء دراسته لحوران وبعد أن قام بجمع أسماء بعض من البدو والدروز من حوران، ولاحظ أن هناك الكثير من الأسماء الصفوية النادرة أو غير المعروفة للعرب الحديثين في تلك المنطقة قد أطلقت على بعض السكان هناك (Macdonald 1992:420) . ولاحظ أيضا أن الاسم "أذينه" يتردد كثيراً في النقوش الصفوية، ونادراً ما يرد في الأدب العربي القديم. وبناء عليه يفترض أن اسم " أذينه" قد شاع عند بدو بادية الشام في عصر " أذينه" ملك تدمر أو بعد وفاته، أي انه شاع في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد (أبو عساف ١٩٩٧: ٦٦).

ومن خلال النقوش الصفوية اتضح أن بعض أسماء الأعلام عند الصفويين لها علاقة ببيئتهم، فقد يسمى بعضهم على أسماء الحيوانات المفترسة ومنها: أسد، ولبؤة ، ونمر ، وذئب، وغيرها. ووردت في النقوش أيضاً الكثير من

اسماء القبائل مثل "أشلل" و "جعبر" و "زد" و"نمرت" و "عويذ" و "درج" وغيرها (عبد الحميد ١٩٦٧: ١٦٥)، وظهرت بعض مجموعات النقوش الصفوية مزينة بأشجار صغـــيرة من سلالات الأنساب بشكـــل يصل أحيـــاناً إلى عشرة أجيال (Milik ١٩٨٨: ٢٨٥). ومن الجدير بالذكر "أنه أحياناً عند ولادة ذكر جديد أو عند تعيين إسمه، كان ينظم احتفال هام دلالة على ولادة قبيلة جديـــدة (Milik ١٩٨٨، ٢٨٦).

ووردت أحياناً علي بعض النقوش تواقيع للرسامين أو الخطاطين الصفويين، وجدت مشاهد لصيد الأسود، ومصارعة الرجال، وقطف عناقيد التمر، إلى جانب صور النعامة والجمال، دون إشارة إلى ملكيتها بل تحوي اسم العلم فقط. وان دل هذا على شيء فهو يدل على أن الاسم المذكور في النص هو الذي رسم أو خط أو نقش، وليس هو صاحب العمل أو الحيوانات (أبو عساف ١٩٩٧: ٦٦).

ويذكر موسل (Musil) أن الصفويين عرفوا الفصول، وكانوا يفرقون بينها بواسطة أنواع مختلفة من الأمطار أو بغياب الأمطار، وكانوا يعتقدون أن الأمطار التي تصاحب كل فصل تحكم بنجوم معينة (Macdonald 1992: 1). وأيضاً رسمت في النقوش الصفوية خدوش أو حبات تدل على مجموعة النجوم التي تعرف باسم "الثريا" التي قدسها البدو واستعانوا بها على تحديد أوقاتهم واتجاه مسيرهم (أبو عساف ١٩٩٧: ٦٦). وأيضاً وجد على احد النقوش الصفوية في منطقة غدير الملاح نقش مع رسم يشير إلى خسوف القمر، وهو نفش مكتوب بخط واضح ومعه رسم لشبه هلال، فقد كان البدوي متأثراً بمثل هذه الظاهرة التي يتعرض لها القمر الذي كان واحداً من معبودات العرب قبل الإسلام، إضافة إلى

أن القمر يلعب دوراً هاماً ورئيساً بالنسبة لسكان الصحراء سواء كانوا تجاراً أو رعاة- لأن ظهوره يساعدهم في المسير ليلاً (شنار ١٩٩٤: ١).

ومن أهم النقوش الصفوية نقش عثر عليه في وادي سلمى في الأردن، وهو يمثل رسماً لدوائر تتكون من أربع وعشرين مربعاً، وهذه الرسمة منتشرة في وادي سلمى ويعتقد أن لها علاقة بالفلك (الجبور ١٩٩٦: ١٩).

وقد عانى الصفويون — كما تشير نقوشهم — من الفيضانات، والحرارة الشديدة، والعواصف الرملية التي كانت تهدد حياتهم وحياة قطعانهم بالخطر، فقام الصفويون بتأريخ نقوشهم بحدوث الكثير من هذه الحوادث الطبيعية، لما لها من أهمية بالغة في حياتهم (هدروس ١٩٩٣: ٢١).

وفي الأردن تم الكشف عن مقبرتين وجدت فيها أدوات استعملت لدى الصفويين مثل: مشط خشبي، وقطعة قماش مربوطة وبها بقايا على شكل رماد — يعتقد بأنها كحل-، وبعض الكسر الزجاجية لأواني صغيرة أو مكاحل، مع مجموعة صغيرة من الخرز، واسواره معدنية، وكيس صغيرة من الجلد، وكذلك صحون من الخشب والحجر والمعدن (الروسان ١٩٩٢: ٤١١).

وقد عثر في احدى الرسومات الصفوية على مشط ضخم رسم فوق جسم وأرجل إنسان، وهذه الأمشاط اقترنت برسومات جثث مقطوعة الرأس ذات تخطيط نسري (Macdonald, 1982: 168).

وبذلك فإن الفن في حياة الصفويين كان ظاهراً في رسومهم التي صاحبت النقوش، حيث أظهرت بعض الرسوم الغانيات اللواتي يعزفن على الناي، وأمامَهُنَّ رجل يلبس جلباباً مهدباً ويرقص على أنغام الموسيقى، وكذلك عثر على

نقش يصاحبه رسم لامرأة وبيدها قيثارة، وأخرى تمتطي حصاناً وبيدها قيثارة ويجري بقربها كلب (الروسان ١٩٩٢: ٤١١).

وقد اندمج الصفويون في الشاميين من أهل سوريا، وأخذت الروابط المعنوية التي تربط القبيلة تنحل شيئاً فشيئاً حين دخلوا في خدمة الجيش، وحينما اشتغلوا أجراء عند الحضريين، وبالتالي أخذوا عن الأنباط طرق البناء، فبنوا قرى بالحجارة البركانية على السفح الشرقي لجبل حوران، ثم مارسوا الزراعة والتجارة. أما أولئك الذين استمروا في التردد على الحرة، فلم يكونوا إلا رعاة خاضعين لقوانين إرسال القطعان إلى الجبال العالية زمن الصيف. أما النصوص التي نقشها الصفويون الذين تحضروا فقد كتبت بالإغريقية، وأما اللغة التي كانت مستعملة في الحياة اليومية فهي دون ريب اللغة الآرامية (ديسو ١٩٥٩: ١٦١).

وهذه النقوش الصفوية تشير إلى ملاحظة هامة، وهي أن الصفويين كانوا على دراية كافية بالقراءة والكتابة، مع انهم قبائل عربية متنقلة (مهران ١٩٩٤: ٤٨).

١. الزراعة والرعي والصيد من خلال فنونهم

عثر في محافظة المفرق على نقوش صفوية مهمة، منها رسمة على حجر بدون أي نقش توضح الزراعة عند القبائل الصفوية، وهي على شكل مجموعة من المزارع المسورة ورسومات لشجيرات صغيرة، مع وجود غدران للمياه وصورة غزال يشرب الماء . وقد تبين من النقوش الصفوية أن الصفويين اعتمدوا في غذائهم ، على منتجات الحيوانات التي كانوا يدجنوها ،واعتمدوا على العديد من النباتات البرية لتغذيتهم . أما الرعي فقد كان من أهم المهن التي زاولها الصفويون،

فكانوا يرعون الماشية والأنعام كالإبل الذي كان هاماً جداً عندهم في حلهم وترحالهم (الروسان ١٩٩٢: ٤٠٧ وديسو ١٩٥٩: ١٠٧)، والذي تبين أن بعض القبائل كانت تعتمد في حياتها على تربية الإبل، فقد كانوا يستفيدون من لحوم الجمال الصغيرة في المآكل، ومن النوق في توفير الحليب لهم، كما استخدمت الجمال كوسيلة للنقل .

وقد عرفوا الثور، والماعز، والخراف (Macdonald 1992: 421) والبقر، والخيول، والحمير، والكـــلاب، والظبي، والعقرب (الروسان ١٩٩٢: ٤٠٧)، واكتشف ليتمان الأسد والذئب (ديسو ١٩٥٩: ١٠٧) و لم يقتصر ذكر الحيوانات في النقوش بل أن رسومها صاحبت النقوش، حيث وجدت بعض الرسوم التي تصور مواجهات لسائقي القوافل مع ذئاب أو اسود، ومن الملاحظ أن الصفويين كانوا يرسمون الأسود- في معظم الأحيان – أما لوحدها أو مع شخص واحد فقط (Macdonald 1982: 169) ويقول ليتمان أنه عثر على نص جاء فيه ذكر لرجل جرحه أسد، وعلى هذا فإنه لم يعد هناك شك أن الأسد كان يوجد في أول عصرنا هذا في حرة وادي راجيل (ديسو ١٩٥٩: ١٠٨).

وهناك ذكاء فطري في الصور المرسومة للحيوانات، فقد أراد مصوروها أن يعبروا عن غرائزهم الفنية بصورة محسومة، فرسموا صورة حيوانات ألفوها ورأوها بصورة بدائية ولكنها معبرة أخاذة (علي ١٩٦٩: ١٥١).

ويبدو أن الصيد كان لهواً محبباً لنفوس الصفويين، فكثيراً ما رسموا يطاردون غزالاً أو بقر الوحش ذات القرون الطويلة العمودية أو ذات القرون الملتوية إلى الخلف، أو الأسد، أو حمار الوحش (علي ١٩٦٩: ١٥٢؛ ديسو ١٩٥٩: ١٠٨).

ومن الرسوم المصاحبة للنقوش استطاع العلماء تمييز عدة مناظر للصيد، فهناك رسم يبين شخصاً يمتطي جواداً وبيده رمح يطارد مجموعة من النعام، ويظهر الجواد ملجماً (الروسان ١٩٩٢: ٤٠٩). وفي رسم آخر يظهر رجل يمتطي حصاناً ويطارد غزالاً (Winnet 1957:16)، وفي أخر أشخاص يطاردون ظبياً أو وعلاً ونرى رجالاً يركبون الخيل يهاجمون أسداً والرمح في أيديهم (ديسو ١٩٥٩: ٢٣)، وفي رسم أخر نرى رجالاً يركبون جمالاً، ويستخدمون رماحاً وشباكاً. (Macdonald, 1982: 169)

ومن عادات اللهو عندهم رسم حيوانات تتصارع كالإنسان، وأحيانا صاحب الرعي والصيد الغزو حيث أنه يوجد نقش عن مكاسب الغزو (الروسان ١٩٩٢: ٤٠٩).

٢. التجارة:

لم يعرف إلا القليل جداً عن تجارة الصفويين، والذي عرف كان من الرسومات المصاحبة للنقوش. فقد وردت في احدى النقوش التي وجدت في وادي سلمى في الأردن صورة تبين قافلة مكونة من تسعة جمال يتقدمها احدها، ويقوده رجل في يده اليسرى رباط الجمل وفي الأخرى عصا (الجبور ١٩٩٦: ١٩).

٣. الحرب والقتال:

أظهرت بعض النقوش التي وردت في وادي سلمى – الذي يقع على بعد ٣٥ كم إلى الشمال الشرقي من بلدة الصفاوي في الأردن – حروباً خاضها الصفويون مع غيرهم، وقد قسمت إلى ثلاثة أقسام:

١. حروب بين القبائل الصفوية (الجبور ١٩٩٦: ٤١٧؛ الروسان ١٩٩٢: ٤٠٠).

٢. حروب بين القبائل : الصفوية والشعوب المجاورة لها كاليهود، وهي تظهر لأول مرة في هذه النقوش (الجبور ١٩٩٦: ١٧).

وقد وجدت في السابق نقوش تدل على حروب الصفويين مع الرومان أو البيزنطي وأخرى مع النبطيين (الروسان ١٩٩٢: ٤٠٠؛ Macdonald 1992: 421) وثورة من قبلهم ضد الرومان (Macdonald 1992, 421)

٣. حروب بين الشعوب المجاورة لهـــم كالأنباط واليهود (الجبور١٩٩٦: ١٧).

وكان الصفويون يتخاصمون أحياناً مع موظفي الأمن الروم وحراس الحدود بسبب توغلهم في قرى بلاد الشام ومدنها لبيع ما عندهم من فائض منتوج أيديهم ومن حاصل حيواناتهم، لهذا نجد بعض الكتابات وقد سجلت حين هرب صاحبها من سجن الروم وعاد إلى حريته، أو هربه من الروم استنشاقه نسيم الحرية (علي ١٩٦٩: ١٤٦).

وقد اشتهرت بعض القبائل بكثرة الغزو واخذ الغنائم مثل قبيلة "حولة"، حيث أوردت بعض النقوش أنها كانت شمال الحجاز، وقامت بالسبي، والقتل، والسلب، والبغي على قبائل صفوية كثيرة (الروسان ١٩٩٢: ٤١٠).

وترك لنا الصفويون عدداً لا بأس به من النقوش المؤرخة بقيام بعض الأفراد بأعمال ذات أهمية معينة بالنسبة للصفويين كالأعمال البطولية، بحيث سارت مسار المثل بين أفراد القبائل الصفوية حتى أرخوا نقوشهم بها. ومنها نقش يتحدث عن إنقاذ شخص يدعى "لحج" لـــ "ريت" أو "كيت" من أيدي الغزاة أو من السجن، ومن المؤكد أن "لحج" هذا كان من القوة والشجاعة والفروسية أن دعا الصفويين إلى تأريخ اسمه (هدروس ١٩٩٣: ٥٤).

أما أسلحة الصفويين سواء في الحرب، أو الغزو، أو الصيد، فقد زودتنا الرسوم المصاحبة للنقوش بأشكال عديدة منها مثل: القوس، والسهم، والرمح، الطويل والترس (الروسان ١٩٩٢: ٤١٠). فترى في بعض الرسوم رجالاً يسيرون على الأقدام مسلحين بالأقواس والتروس (ديسو ١٩٥٩: ٢٣)، وفي رسم أخر رجلاً يمتطي حصاناً ويحمل بيده سيفاً أو عصا، وأمامه رجل أخر يمشي على قدميه ويحمل سيفاً وترساً (Winnett 1957: 43).

٤. الديانة:

نشأت الدراسات الدينية على تطور الفكر الديني والأدوار التي مرت بها وعلى النواحي التاريخية والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية لدى الشعوب المختلفة، لما لتلك المناحي من أهمية في تحديد الأطر العامة للدين، ولما للدين نفسه من التأثير في كل منها.

أما المصادر التي اعتمدت في دراسة أديان العرب قبل الإسلام فهي النقوش والمخربشات (Graffiti) سواء الجنوبية وفروعها الشمالية مثل: الديدانية، اللحيانية، والثمودية، والصفوية، أو الشمالية مثل: الآرامية، والنبطية، والتدمرية، والحضرية. وقد أمدتنا هذه الوثائق أو النقوش بأصدق المعلومات عن الديانات الوثنية، لأننا فيما عدا ما أشار إليه القرآن الكريم إشارة عابرة لا نجد في الأدب العربي إلا بعض النصوص من كتاب الأصنام، وبعض المحاولات الأخرى (ديسو ١٩٥٩: ١١٠).

والنصوص الصفوية وضعت بين أيدينا الكثير من الآلهة التي كانت مجهولة لدينا، وإذا قارنا بينها وبين آلهة تدمر مثلاً، وجدنا آلهة الصفويين تبدو لنا اقدم منها واقل تأثراً بالطابع السوري، أي التأثير الإغريقي الآرامي في تلك الفترة من الزمن. كما ترينا النصوص كيف أن بعض الآلهة العربية قد دخلت في الديانات السورية، ومنها انتشرت بواسطة الجنود والتجار في جميع أنحاء العالم الروماني (ديسو ١٩٥٩: ٢٢).

ومن آلهة الصفويين الرئيسية "اللات" التي تعد اكثر الآلهة وروداً في النصوص التدمرية، إذ ورد ذكرها أكثر من ستين مرة (ديسو ١٩٥٩: ١١١)، و "شيع القوم" و "رضا" أو "رضو" (الروسان ١٩٩٢: ٤٢١) التي تبين من خلال الدراسات أن الثموديين والصفويين عبدوا نفس الآلهة "رضو" أو "رضي"، ولكن تبين من خلال الدراسات أن الثموديين والصفويين عبدوا نفس الآله (بشابشه ١٩٩٤: ٦). وهناك "بعل شمين" أو "بعل السماء" الذي هو نفسه "رب شمين" أو "بعل شمين" عند أهل تدمر، الذي يمثل رب السماء عند الصفويين والتدمريين (علي ١٩٨٤: ١١٣)، و "جد عوذ"، "ذو الشرى"، و "صالح" و"هلت" و"دين:

(علي ١٩٧٠: ٣٢٢)، وإله هجبل "أو" آله هاجبل "الذي يعني "إله الجبل) (علي ١٩٦٩: ١٥٢)، وهي تسمية تدل على أن عبدته كانوا من سكان جبل أو ارض مرتفعة، وهو يقابل الإله المسمى "ايلا جابل" (Elagabal) وهو كناية عن الشمس، وكان يعبد في حمص (Emesa) (علي ١٩٦٩ : ١٥٢).

وتقدم النقوش الصفوية لأول مرة الدليل القاطع على أن "الله" كان آلهاً عبده عرب الشمال قبل أن يصبح الإله الواحد الأحد عند المسلمين، وهذه الكلمة وردت في النصوص خمس مرات، وكانت دائماً مسبوقة بهاء النداء (ديسو ١٩٥٩: ١٣٢). وهناك آلهة ذكرت في بعض النقوش ولم تكرر كثيرا مثل "مناة"، "العزى" (Macdonald 1992: 422)، ويعتقد أن مثل هذه الآلهة كانت منتشرة ثم حلت محلها آله أخرى مثل الآلهة "رحم"، وكان أيضاً عند العرب الجنوبيين "رحمن" و"يثع" أي "الحامي" و"شمس". (الروسان ١٩٩٢: ٤٢١).

أما رجال الدين عند الصفويين فقد ألقت بعض النقوش الضوء على بعض الألفاظ التي تشير إلى ألقاب دينية عندهم، فورد لقب الكاهن، والعراف، والساحر، وربما كان العراف أعلى درجة من الكاهن (الروسان ١٩٩٢: ٤٢٣). ذكرت أيضاً بعض الكلمات في النقوش الدينية مثل: تضحية، وحج، وعيد أو احتفال، والعديد من الصلوات التي تخاطب الآلهة (Macdonald 1992: 421). ويتضح لنا من بعض النقوش أن الوظائف الدينية كانت مقصورة على أسرة واحدة، ففي حران — مثلاً- كان الإله يعرف بأنه "آله فلان"، ويغلب على الظن أن فلاناً هذا كان رئيس الأسرة الدينية (ديسو ١٩٥٩: ١١٦).

٥. المدافن:

كان من عادات الصفويين والتي لعبت دوراً هاماً في حياتهم الرجوم، والتي أقامها أفراد القبائل في الفيافي والقفار في الصحراء السورية، و الأردنية، والسعودية.

لقد مارسوا هذه العادة على نطاق واسع، وهي أن يوضع رجم من عدة حجارة ترتفع قليلاً عن سطح الأرض على قبر من القبور لشخص هام أو عزيز (الروسان ١٩٩٢: ٤٠٣). وقد جاء في "معجم الآلهة": كان العرب في القديم يضعون على القبر كومة من الحجارة، ثم يأتي آخرون بعدهم ويفعلون الشيء نفسه، ويدعون ذلك "الرجم" كما هو معلوم في النقوش الصفوية (عبد الله، مقالة غير منشورة، ٧٦).

وكانت لهذه الرجوم استخدامات أخرى، فقد استخدمت كأبراج لمراقبة الطريق، أو لإبقاء النار لتهدي القوافل في الليالي المظلمة (Jamme 1984: 69; Zayadine 1980: 109) واستعملت بعض الرجوم الصغيرة كمقابر أو مدافن (الروسان ١٩٩٢: ٢٠٠؛ Zayadine 1980: 109).

وهذه الرجوم كانت بأشكال مختلفة، فمنها الدائري، والمستطيل، وغير المنتظم الذي يكون على شكل حجارة متراكمة فقط (الروسان ١٩٩٢: ٤٠٣) وتحتوي هذه الرجوم على المئات من النقوش الصفوية تخليداً لذكرى الميت، وفي النقش الواحد – أحياناً – نجد الاستغاثة بآلهة متعددة ولا تقتصر على آله واحد (عباس ١٩٩٠: ٩١). وأحياناً نجد حجارة مكتوب عليها أسماء النائحين على الميت وعلاقتهم به، وقد ذكروا أنهم كانوا من النائحين، ووضحوا أن المتوفي رجل أو امرأة (Macdonald 1992: 421). ونقشت أيضاً بعض الجمل على

الحجارة أو السواكف الشبيهة بالشواهد على المقابر تحوي بعض الكلمات كضريح، وراحة النفس، ونية الوجهة التي ينويها المسافر، وقد يقصد بها المثوى الأخير (أبو عساف ١٩٩٧: ٦٦) وأحياناً أخرى نجد على الرجوم نصوصاً مختلفة، ففي جاوا – مثلاً – وجدت ثلاثة رجوم نقشت عليها نصوص صفوية، وكوفية ويونانية (Winnett 1957: 2).

وعادة ما يوجد على رجوم المدافن صلاة ودعاء لبعض الآلهة (Winnett 1957: 1)، ولعنة على هؤلاء الذي يشوهون الكتابات، وبركات لهؤلاء الذي يتركوها على حالها (Macdonald 1992: 421) ويلاحظ أن النقوش التي تحوي نداء للرب أو دعاء له فقط قليلة في النقوش الصفوية إذا ما قورنت بالنصوص الثمودية، لذا يعتقد أن الصفويين تأثروا بالثموديين في هذه الناحية, وفي بعض الأحيان يوجد على الحجارة نقش جنائزي يرافقه صور رجال، وفي هذه الحالة قد تكون الصورة للميت، وأحياناً أخرى ترافق النص الجنائزي صورة أنثى تبسط ذارعيها لتتلقى شعرها المتناثر، وقد تدل الصورة على الربة "شمس" التي قدسها البدو، أو تدل على أمة إذا ما وردت في النص كلمة "قينة" "امة" (أبو عساف ١٩٩٧: ٦٦).

وقد كانت مدافن الصفويين بسيطة مغطاة بحجارة لإبعاد الحيوانات المتوحشة، ووجدت بعض القبور لرجال ونساء كانت توجد رجوم ضخمة منتصبة فوق قبورهم، لربما كانت لهم منزلة عالية (Macdonald 1992: 421). وهذه الرجوم غالباً ما تكون على مقربة من الأماكن التي توجد بها مياه، أي في الأماكن التي كانوا ينتجعونها (ديسو ١٩٥٩: ٥٦).

وأحياناً كان الصفويون يبنون الرجوم للأبطال الذين وقعوا في المعارك، فهناك مثلاً رجم في وادي الموجب يدل على مكان معركة بين الصقور (Sukhur) وبني حميدة (Beni Hamideh) (Zayadine 1980: 108). وقد كان الصفويون يعتقدون بوجود شخص يحوم في الليل حول الرجوم ويقوم بقتل أي شخص يقابله، لذلك إذا مر احدهم قرب رجم من الرجوم أثناء النهار، فإنه يقوم بقذف حجر من الشارع على الرجم، وهذه الإيماءة المتوقع منها أن تريح الأرواح الموجودة تحت الرجوم (Zayadine 1980: 109).

الفصل الرابع

الأنبـــــاط

- ظهورهم التاريخي.
- ملوكهم.
- شواهدهم الحضارية.

من المعروف أن الأردن يعتبر متحفاً مفتوحاً، يزخر بتراثه الحضاري الخالد منذ العصور الحجرية القديمة، وحتى الوقت الحاضر، وأن هذا التراث الغني، الذي قدم للحضارة العربية والعالمية الكثير الكثير، يجب أن يكون أحد أبرز وأهم اهتماماتنا الآن، في المحافظة عليه وفي رعاية هذه الكنوز الأثرية النادرة، ووضع خطة شاملة للنهوض بها.

وجد الإنسان في الأردن منذ حوالي مليون ونصف مليون سنة تقريباً. حيث وجدت آثار لهذا الإنسان في منطقة وادي الحمة في الأغوار الشمالية، كما وجدت آثار للعصور الحجرية في مناطق مختلفة في الجنوب والوسط وشمال المملكة، وللعصور اللاحقة وخاصة البرونزية منذ حوالي (٣٢٠٠) قبل الميلاد ولغاية (١٢٠٠) قبل الميلاد و شهد الأردن نشوء المدن التي انتشرت في مناطق واسعة في الأغوار، وفي السهول والمناطق الجبلية، وحتى في المناطق شبه الصحراوية، ووجدت مناطق استيطان رئيسة، فوق المناطق المرتفعة، وقرب عيون المياه والأراضي الصالحة للزراعة، وقد زرع السكان مختلف أنواع الحبوب والمزروعات، وكانت مواقعهم محاطة بالأسوار الدفاعية كما عثر أثناء الحفريات على المعابد، إضافة إلى البوابات الرئيسة المقامة على الأسوار الدفاعية.

وفي نهاية العصور البرونزية، وبداية العصور الحديدية بدأت المناطق المسكونة بالاتساع والكثرة، كما أن الكتابات المعاصرة لهذه الفترة وخاصة فترة تل العمارنة في مصر، أمدتنا بأحوال هذه المناطق، فقد تأسست الممالك السامية في الأردن إذ قامت في الجنوب مملكة آدوم والى الشمال منها مملكة مؤاب، وفي الوسط مملكة عمون، والمملكتان الآموريتان في جلعاد في شمال المملكة (مملكة

ســيحون في الجنوب ومملكة باشان في الشمال). وقد كانت العلاقات قوية بين هــذه الممالك، وتربطها مصالح اقتصادية واجتماعية مشتركة، كما كانت تربط بيــنها جميع المعلومات عن الأنباط الواردة في هذا الفصل مستمدة من كتاب ا. د.زيدون المحيسن ، البتراء مدينة العرب الخالدة ، وزارة الشباب ، عمان، ١٩٩٦ مجموعة من طرق القوافل التجارية. وقد ورد في الكتابات الآشورية مجموعة من أسماء المدن والملوك في الأردن حيث ورد ذكر لحوالي ٢٢ ملكاً ، منهم على سبيل المثال: جابر، وأيارمو من ملوك الأدوميين، وكموش وميشع من ملوك المؤابيين، وبودايل، وروحوي من ملوك العمونيين. فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف عام تأسس في الأردن مجــتمع حضاري وسياسي، فرض وجوده في المنطقة والمناطق المجاورة لــلأردن، وتــرك بصماته واضحة وجلية عبر العصور اللاحقة، كما قامت على أرض الأردن قــبل أكثر من ألفي عام، مملكة الأنباط التي رفدت الحضارة العربية والحضــارة العالمية بحضارة جديدة متميزة، حيث أسس أجدادنا الأنباط العرب حضــارة متقدمة في شتى الميادين، والأنباط هم قبائل عربية سكنت منطقة أدوم جنوب الأردن، واستطاعت تكوين مملكة قوية فيها وكانت عاصمتها البتراء.

ازدهرت مملكة الأنباط في الفترة من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وحتى القــرن الثاني الميلادي، وكانت تعتمد بشكل رئيس على التجارة، وتحتل مركزاً مــرموقاً على طريق القوافل التجارية، التي كانت تجتاز المنطقة قادمة من الجزيرة العــربية إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. وقد شهدت منطقة الأردن أيام المملكة العربية النبطية ازدهاراً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وزراعياً، نافســت فــيه الدول الكبرى التي كانت قائمة آنذاك، وتوسعت حدود المملكة النبطــية، لتشمل مناطق شمال الجزيرة العربية جنوباً، وحتى مناطق دمشق شمالاً، ومن الصحراء الشرقية شرقاً، إلى البحر المتوسط غرباً.

امتدت الحضارة النبطية لتشمل منطقة وادي عربة من جنوب البحر الميت وحتى خليج العقبة، بطول ١٨٠ كيلو متر، وتم العثور في هذه المنطقة الواسعة على العديد من المنشآت النبطية التي تدل على نشاط الأنباط التجاري، وعلى سيطرتهم على المناطق وتنظيمها، وذلك بإنشاء مراكز دفاعية استخدمت لحماية الطرق التجارية، ومراكز لاستراحة القوافل، حيث اعتبرت المنطقة بمثابة حلقة وصل بين شبه الجزيرة العربية وخليج غزة وعسقلان. وقد احتوت منطقة وادي عربة على مساحات واسعة من الأراضي التي استطاع الأنباط استغلالها زراعياً، وكان لوفرة مصادر المياه الطبيعية مثل الينابيع والعيون، ما شجع الأنباط على زراعة هذه المناطق وإنشاء البرك والسدود والقنوات فيها، ويرى الزائر للمنطقة آثاراً عديدة مثل الأسيجة الحجرية والجدران الاستنادية، التي كان الأنباط يضعونها لتحديد الأراضي الزراعية ومنع انجراف تربتها. ومن أهم المحاصيل التي كانت تزرع الكرمة والزيتون والحبوب.

ولما أنشأ القائد الروماني بومبي عام ٦٤ قبل الميلاد، الولاية السورية في ما سمي لاحقاً ببلاد الشام، حاول هذا القائد الاستيلاء على المملكة النبطية وضمها إلى هذه الولاية عام ٦٢ قبل الميلاد، ولكن باءت محاولاته هذه بالفشل واستطاعت المملكة النبطية أن تحافظ على استقلالها.

وفيما بعد انضمت الدولة النبطية إلى الدولة الرومانية عام ١٠٦ ميلادي، وتحولت البلاد إلى ما يسمى بالولاية العربية.

وبالرغم من الدراسات والبحوث الكثيرة، المتعلقة بالحضارة النبطية وبتاريخ الأنباط والتي تدور حول نتائج التنقيبات الأثرية، في المواقع النبطية المختلفة وخاصة العاصمة البتراء، و التي جاءت بمعلومات قيمة تحليلية ووصفية

للنحت والعمارة النبطية، ودراسة نظم الري، والزراعة، وطرق المواصلات، والتجارة، ودراسة الفخار النبطي...الخ، إلا أن هذه الدراسات، لم تعن بأصول هؤلاء الأنباط العرب، وكذلك بأصول حضارهم العربية المحلية، التي أسستها وبنتها عقولهم الذكية وسواعدهم الماهرة.

ظهورهم التاريخي:

كان الشعب الأدومي يسكن منطقة جنوب الأردن، وبالتحديد المنطقة الواقعة ما بين وادي الحسا شمالاً، وخليج العقبة جنوباً، والبحر المتوسط غرباً، والصحراء الشرقية شرقاً. الأدوميون قبائل سامية عربية هاجرت من اليمن وجنوب الجزيرة العربية، وسكنت الأردن منذ حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد، حتى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وهي فترة ما سمي بالعصور الحديدية.

أحاط الآدوميون أراضيهم بسلسلة من القلاع المبنية من الحجارة القوية، وبنوا عاصمتهم "بصيرة" الواقعة جنوب مدينة الطفيلة، ومن مواقعهم سلع "سالع" التي ذكرها التوراة وتيماء وهذه كانت مقاطعات رئيسة لهم (Glueck 1970, 32).

ومن مواقعهم الأخرى خربة الذريح وطويلان، أم البيارة وتل الخليفة، وقد جاءت تسميتهم بالآدوميين من اسم المنطقة التي يعيشون فيها وهي أرض آدوم، ويذكر بطرس البستاني، أن آدوم اسم يدل على اللون الأحمر الذي تشتهر به هذه المناطق وخاصة مناظرها الطبيعية، وقد يكون الإسم أُخذ أيضاً من لون العدس المشابه للون هذه الأرض .

وما تزال المعلومات عن الآدوميين يحيطها الكثير من الغموض، بسبب قلة المصادر التاريخية وندرتها أحياناً، وقد حاولت استعراض هذه المقدمة البسيطة لما لهـذا الموضوع من أهمية، وارتباطه بأصل وتاريخ الأنباط، فقد أثبتت الحفريات الأثرية في السنوات الأخيرة، وخاصة الحفريات في مناطق طويلان، والبتراء، وتل الخلـيفة، وبصـيرا، وخربة الذريح، أن الأنباط سكنوا هذه المواقع التي كان في الأصـل يقطـنها الآدوميون، وهذا يدل على الإرتباط الحضاري واللغوي بين الأنباط والآدوميين وكيف أن الآدوميين، تقبلوا بصدر رحب وصول واستقرار الأنـباط في مـواقعهم المختلفة، واستذكر هنا المستشار أنتيباتر (Antipater) الذكـي، الآدومـي الأصـل، الذي كان مساعداً ومستشاراً للملك اليهودي الكسـندر جانيوس (Alexander Janneus)، وكيف أن انتيباتر كان معروفاً بمـيوله إلى الأنـباط، بسبب أصله العربي الآدومي، وسنأتي إلى ذكر ذلك حين استعراض قائمة ملوك الأنباط.

والأنـباط إحدى القبائل العربية الشمالية، التي هاجرت على ما يبدو من مـناطق الـيمن، طلباً للرزق والزراعة ورعاية الماشية، وخاصة بعد خراب سد مأرب، ويؤكد هذه الحقيقة انتهاج الأنباط لطرق ري وزراعة ونحت، على غرار العديد من المنشآت المائية الموجودة في اليمن، كما أن عادة الطواف حول منطقة قـدس الأقداس داخل المعبد النبطي، كما هو موجود في معبد الأسود المجنحة في البتـراء، ومعـبد خربة الذريح في الطفيلة، ومعبد خربة التنور في وادي الحسا، ومعبد اللات في وادي رم، حيث كان الأنباط يطوفون حول هذه المنصات المربعة الشـكل أثـناء التعبد والصلاة، وقد وجدت العديد من هذه المنصات المربعة أو "المعلـيات" في اليمن، وتجدر الإشارة إلى أن الكعبة المشرفة، كانت أيضاً مكاناً هاماً للطواف قبل الإسلام بمدة طويلة، كل ذلك يؤكد على وصول الأنباط من

الـــيمن، ومن جنوب الجزيرة العربية، وبالتالي استقرارهم في المناطق الشمالية في الحجاز، والحِجر، والبتراء، وفي مناطق حوران في سوريا، وتشير بعض الروايات إلى تـــوجه بعضهم، إلى مناطق الإحساء وفي وادي الدواسر، وفي دومة الجندل، وتـــيماء. ونأمـــل أن تزودنا الحفريات التي تقوم بها جامعة الملك عبدالعزيز، في مـــناطق الفـــاو، بمعلومات جديدة حول الأنباط، وعلاقتهم بإخوالهم من القبائل العربية الأخرى (الأنصاري ١٩٨٦، ٢١٧-٢٧٤)، وقد كان المؤرخون اليونان والـــرومان يدعون الأنباط بالعرب، كما أن الرومان بعد وصولهم إلى المنطقة في عام ١٠٦ ميلادي، أطلقوا عليها اسم المقاطعة العربية.

وعلـــى ما يبدو فأنه منذ بداية الفترة الفارسية، كان هناك تقدم واضح للأنـــباط في مجـــال التجارة، والري، والزراعة، وبالتالي السيطرة السياسية على الممـــرات والطرق الهامة. صحيح أن الحفريات الأثرية والنقوش، لم تكشف لغاية الـــيوم عن طبيعة هذه الفترة، وأهميتها في حياة الأنباط وحضارتهم. وإننا لم نأتِ بهذا الطرح جزافاً، في إشارتنا إلى السيطرة النبطية السياسية، وتحكمهم في طرق الـــتجارة، مـــنذ الفتـــرة الفارسية ولغاية القرن الرابع قبل الميلاد، حيث نجد أن المعلومات التاريخية، وخاصة الكلاسيكية، التي من أقدمها كتابات المؤرخ اليوناني ثيودور الصقلي (Diodorus of Sicily)، التي حدثتنا عن تجهيز حملة يونانية في القرن الرابع قبل الميلاد، لإخضاع الأنباط العرب، وهذا يعني أن الأنباط كانوا في تلك الفترة، قوة لها وزنها الدولي ولها كيانها وسيطرتها على طرق التجارة الدولية، آنـــذاك، هذه السيطرة جعلت دولة عظمى كاليونان في ذلك الوقت تجهز حملة عســـكرية لإخضاع الأنباط، لتسهيل وصولهم وسيطرتهم على القوافل التجارية، القادمـــة مـــن البحر الأحمر والخليج العربي، وكذلك الطرق البرية، القادمة من الجزيـــرة العـــربية ومن سيناء عن طريق صحراء النقب، التي كانت البتراء تعتبر

مركزها الرئيس، ومحطة بارزة للقوافل التجارية. وكما ذكرت سابقاً لا نستطيع لغايـــة اليوم تحديد تاريخ لبداية الأنباط، وظهورهم في التاريخ، إلا أننا نستطيع القول أنهم كانوا قوة لا يستهان بها في فترة ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد.

نعتمد في دراستنا لتاريخ الأنباط، على بعض المصادر الكلاسيكية القديمة والـــتي مـــن أشهرها كتابات المؤرخ اليوناني ثيودور الصقلي، الذي كان ينقل معلـــوماته عـــن الرحالة اليوناني هيرونيمس (Hieronymus)، والتي يذكر فيها تجهيز أول حملة عسكرية يونانية، لإخضاع الأنباط في عام ٣١٢ قبل الميلاد. زمن القائد اليوناني انتيقونس (Antigonos)، الذي جهز هذه الحملة وأرسلها بقيادة أحـــد ضباطه، وصديقه المدعو أثينوس (Athanaeus)، وكانت الحملة مزودة بحوالي ستة آلاف من الخيالة وحوالي أربعة آلاف من المشاة، وقد هاجمت الحملة مدينة البتراء عاصمة الأنباط في الليل، مستغلين عامل المفاجأة وكذلك خلو البتراء مـــن الرجال (حيث يعتقد أن الأنباط كانوا متوجهين لاستقبال إحدى القوافل الـــتجارية)، وقام رجال الحملة العسكرية بنهب الفضة والأموال والمر والبخور، وعـــندما علـــم الأنباط بذلك استطاعوا اللحاق بالحملة العسكرية اليونانية، التي كانـــت مخـــيمة في مناطق بعيدة عن البتراء، وانتصر الأنباط، ولم يبق من الحملة العســـكرية اليونانـــية، إلا خمسين خيالاً يونانياً، استطاعوا الهرب والنجاة وهم مثخنون بالجراح، وبذلك فشلت الحملة اليونانية.

ويذكـــر ثيودور الصقلي، أن الأنباط في القرن الرابع قبل الميلاد، كانوا عبارة عن مجموعة من البدو، عددهم عشرة آلاف ويسكنون الصحراء، ولا يبنون منازل، ولا يزرعون الأرض، ولا يشربون الخمر (وهذا كلام مناقض لواقع حال الأنـــباط)، وأنهم يعيشون على رعاية الأغنام، والاشتغال بالتجارة، ولم يحكمهم

ملك وإنما كانوا تحت قيادة شيوخ عشائرهم. وقد كانوا بارعين في حماية أنفسهم وخاصة في المناطق الصحراوية حيث يصعب مطاردتهم (Diodorus, History 19, 87-91).

وورد ذكـر للأنباط، في كتابات المؤرخ اليوناني زينون (Zenon)، منذ القرن الثالث قبل الميلاد (حوالي ٢٥٩ قبل الميلاد) حيث كانت التجارة مزدهرة ورائجـة على طول الساحل الفلسطيني، وعبر وادي الأردن، وشمالاً إلى مناطق حـوران، ووردت إشارات للأنباط وتواجدهم في تلك المناطق (Graf 1990, 53-54).

وورد ذكـر للأنـباط كـذلك في كتابات الجغرافي اليوناني سترابو (Strabo)، الـذي عـاش في القـرن الأول الميلادي، وقد كان سترابو ينقل معلوماته عن شخص يوناني ضرير اسمه اثينادور الطرطوسي (Athenodorus of Tarsus)، وذكر سترابو أن الأنباط يبنون بيوتهم من الحجارة، ويحبون السلام، وكانـت منطقتهم مليئة بالحدائق والينابيع، وعاصمتهم البتراء، وكانوا يعملون بالتجارة والزراعة، ولا يهتمون بموتاهم ويضعونهم مع أكوام القمامة (وهذا كلام مناقض للواقع) (Strabo, Geography 4, 26).

وذكر الأنباط في كتابين للمؤرخ يوسيفيوس (Josephus)) كان الكتاب الأول بعنوان حروب اليهود (The Jewish Wars) والكتاب الثاني آثار اليهود (Antiquities of the Jews)، وقـد وردت في الكتابين معلومات كثيرة عن الأنـباط، وخاصـة مـا ورد في كتابه الأول من أخبار عن الأنباط، وتاريخهم السياسـي، وعلاقاتهم الخارجية، وحروبهم مع اليهود، وقد كانت معظم كتاباته غير محايدة بسبب ميوله المتطرفة لليهود.

ملوك الأنباط

اختلف المؤرخون في تحديد قائمة واضحة ومحددة لتاريخ حكم الأنباط العرب، ويبدو أن الأقرب إلى الدقة بين هذه القوائم قائمة الملوك التي اعتمدها العالم جان ستاركي (Starcky) حيث يذكر أن لفظة نبطو Nbtw)l) هي اسم للأنباط ودلالة على شعب الأنباط وملوكهم (Starcky 1966, 900).

وتضم هذه القائمة ما يلي:

١.	الملك الحارث الأول ملك الأنباط	يعود تاريخ حكمه إلى حوالي عام ١٦٨ قبل الميلاد.
٢.	الملك رب آيل الأول	يعود تاريخ حكمه إلى ما قبل عام ١٠٠ قبل الميلاد.
٣.	الملك الحارث الثاني	يعود تاريخ حكمه إلى حوالي عام ١٠٠ قبل الميلاد.
٤.	الملك عبادة الأول	يعود تاريخ حكمه إلى حوالي عام ٩٦ قبل الميلاد، ولغاية ٨٤/٨٥ قبل الميلاد.
٥.	الملك الحارث الثالث	يعود تاريخ حكمه إلى حوالي عام ٨٤/٨٥ قبل الميلاد ولغاية ٥٨ قبل الميلاد.
٦.	الملك مالك الأول	يعود تاريخ حكمه إلى حوالي عام ٥٨ قبل الميلاد ولغاية ٣٠ قبل الميلاد.
٧.	الملك عبادة الثاني	يعود تاريخ حكمه إلى حوالي عام ٣٠ قبل الميلاد ولغاية ٨/٩ قبل الميلاد.
٨.	الملك الحارث الرابع	يعود تاريخ حكمه إلى حوالي عام ٨/٩ قبل الميلاد ولغاية ٤٠/٤١ ميلادي.
٩.	الملك مالك الثاني	يعود تاريخ حكمه إلى حوالي عام ٤٠/٤١ ميلادي ولغاية ٧٠/٧١ ميلادي.
١٠.	الملك رب آيل الثاني	يعود تاريخ حكمه إلى حوالي عام ٧٠/٧١,ميلادي ولغاية ١٠٦ ميلادي. (Starcky 1966, 904-920)

ب. الديانة والآلهة النبطية

تعتـــبر المعلومات قليلة عن ديانة وآلهة الأنباط، حيث جاءت الإشارات مقتضـــبة خـــلال الكـــتابات والـــنقوش المتعلقة بهذا الموضوع، واقتصرت هذه الإشـــارات علـــى ذكر أسماء بعض الآلهة، دون الإشارة إلى التقاليد، والعادات، والمعتقدات الدينية، إلا إنه تم معرفة بعض الآلهة، عن طريق تحليل وقراءة النقوش النبطية (Contineau 1930-1932, 17-19).

كما جاءت معرفة بعض هٰذه الآلهة، خلال الكشف عنها أثناء التنقيبات الأثرية، كحفريات خربة التنور في وادي الحسا في الطفيلة حيث تم الكشف عن بعض الآلهة النبطية والتي أهمها الألهة أتارقتس (Atargatis) (Glueck 1965, 143-144). كما كشفت حفريات خربة الذريح، القريبة من موقع خربة التنور في وادي اللعـــبان، عـــن بعـــض الآلهـــة النبطية، ومنها الأله هرمس ميركوري (Hermes-Mercury)، ويقابـــل هذا الإله النبطي الكتبا (Al-Kutba) (Al-Muheisen and Villeneuve 1993, 486-489; 1994, 41-45, 1995, 521-522).

لقد حمل الأنباط معهم آلهتهم، ومعتقداتهم الدينية، التي كانت سائدة في الجزيـــرة العربية، وبقوا محافظين عليها حتى بعد استقرارهم في المناطق الشمالية. وقـــد ذكر سترابو الجغرافي اليوناني، بعض المجالس أو المضافات التي كان يجتمع فيها الأنباط، حيث يذكر أن الأنباط يجتمعون في حلقات مؤلفة من ١٣ شخصاً، ويوجد في كل حلقة موسيقيان، وللملك قاعة ضخمة يقيم فيها مآدبه، وفي هذه المآدب لا يشرب كل مدعو أكثر من ١١ كأساً من النبيذ، وكان الملك يشارك الـــناس والعامة حياتهم، وأنه يخدم نفسه بنفسه، ويقوم على خدمة الآخرين من

شـــعبه، وهذه من العادات السامية المعروفة والتي اشتهر بها الأنباط (Strabo, Geography 4, 26, Tarrier 1988)، ولا نزال نذكر لغاية اليوم المثل القائل (كبير القوم خادمهم). وقد شكلت حول عبادة الآلهة، جماعات لأغراض دينية، أو جنائـــزية، وقد سميت (المرزاح) (Marzeha) بالآرامية، ووردت هذه الكلمة في منطقة الدير، حيث أشار أحد النقوش إلى مرزاح عبادة وعبادة الرب، ويعتقد أنه الملك النبطي عبادة الأول الذي أُلّه بعد وفاته (Dalman 1912, 57, 92). كمـــا وجـــدت كتابة نبطية في منطقة السيق البارد (البيضا) في أحد المضافات ذكرت سيد المرزاح (رب مرزحا) بالنبطية (Zayadine 1976, 139-142).

وتعتبر دراسة المصادر العربية القديمة التي تحدثت عن آلهة الجزيرة العربية وأماكن العبادة فيها، من أوثق وأدق المصادر، بالرغم من تحاشي المؤرخين العرب في فجـــر الإســـلام، الحـــديث عن الشعائر الدينية والآلهة، وكل ما يتعلق بقبل الإسلام، حتى يتخلصوا من عقدة الجاهلية. ومن أشهر من كتب في موضوع آلهة العـــرب قبل الإسلام الكاتب محمد بن المحق، وللأسف لم يعثر على كتابه لغاية الـــيوم، أمّـــا أبرز ما بقي من هذه المؤلفات، والمصادر المتعلقة بديانة العرب في الجاهلية هو (كتاب الأصنام)، لهشام بن محمد الكلبي، المتوفي سنة ٨١٩ ميلادي. وقد تحدث هذا الكتاب عن الديانة، والآلهة، وأماكن العبادة قبل الإسلام. ونظراً لإرتباط ديانة الأنباط وآلهتهم بديانة العرب قبل الإسلام، فإن كتاب الأصنام يعتبر مصدراً موثوقاً، وصادقاً في نقل المعلومات حول هذا الموضوع. وفيما يلي بعض التعريفات للآلهة التي كانت موجودة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وسأحاول التعلـــيق علـــى علاقـــة هذه الآلهة بالأنباط وأماكن تواجدها في المناطق النبطية المختلفة.

الأله ذو الشرى

ورد في كـتاب الأصنام، أن الإله ذو الشرى، هو صنم بني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد (الكلبي، ١٩٢٤، ٣٧). وقد جلب الأنباط معهم هذا الإلـه مـن الجزيرة العربية ويقابل الإله ذو الشرى الإله اليوناني زيوس (Zeus) (Starcky 1966, 913)، كمـا يقابـل الإله بعل شيمن والإله بعل وحدد في الديانات السامية (Hamond 1973, 95-96).

ويركـز العديـد من الدارسين على أن هذا الإله، قد ارتبط باسم جبال الشـراه، ظـناً منهم أن اسم هذه الآلهة قد جاء منها، حيث أن منطقة السراة، تشـمل المناطق الواقعة بين الحجاز واليمن، وقد استوطنت في هذه المنطقة قبائل الأوس، والأزد، والحـارث، الـتي كانت تتخذ الأله ذو الشرى صنماً لها، وقد هاجـرت هـذه القبائل من اليمن إلى منطقة السراة، بعد انهيار سد مأرب كما ذكرنا سابقاً، وإذا كان هناك ارتباط بين جبال الشراة وجبال السراة، فلا يعتقد أن تكـون هـناك علاقة بين الجبال والإله ذو الشرى. نجد في المعاجم أن كلمة الشرى تعني المنطقة المليئة بالأشجار أو الغابة التي تأوي إليها الأسود، فيقال (أسد الشرى). وقد ورد في قاموس اسطفانوس البيزنطي أن ذو الشرى، مكان مرتفع في الجزيـرة العـربية، وقد أخذ منه اسم الإله ذو الشرى اله العرب الدوشريين (Stephanos Byzantions Ethnika: Dousares). وربما حصل خلط بين الدارسـين، عند ذكر اسطفانوس للمنطقة أو الجبل المرتفع، لذا حصل الخلط بين ذو الشرى ومنطقة السراة (سراة الأزد).

اللات

وهـــي اســـم مؤنث، وكانت صنماً ومعبوداً على شكل صخرة مربعة الشكل، توجد في الطائف، وقد كانت قريش تعظم بيتها كما يفعل جميع العرب، ويقال أن قبيلة ثقيف تعظمها دون غيرها من الأصنام، وتزورها وتقدم لها الهدايا، وقد أشرفت قبيلة ثقيف على سدانتها وبنت لها بيتاً. ويذكر ابن الكلبي في كتابه الأصـــنام أن يهـــودياً كان (يلت) عندها السويق، أي كان يعجن خبز الشعير بالقرب من صنم الالهة اللات. اقترنت بعض أسماء الأعلام عند العرب في الجاهلية بـــاللات مثل (زيد اللات) و(تيم اللات). وقد بعث رسول الله (محمد صلى الله عليه وسلم) المغيرة بن شعبة، ليهدم ويحرق صنم اللات. ويقول الشاعر شداد بن عارض الجشمي بهذه المناسبة، بعد هدم وحرق اللات:

لا تنصروا اللات أن الله مهلكها　　　وكيف نصركم من ليس ينتصر

وقال أوس بن حجر في اللات:

وباللات والعزى ومن دان دينها　　　وبالله أن الله منهـــــن أكـــبر

(الكلبي، ١٩٢٤، ١٦-١٧)

العزى:

وهـــي اسم مؤنث أيضاً، وكانت العرب في الجاهلية، تقسم بها جنباً إلى جنب مع الآلهة اللات (واللات والعزى). وتقابل الالهة العزى الالهة الأخرى عند الشعوب المجاورة، حيث تقابل الالهة عشتار، آلهة الخصب في بلاد ما بين النهرين، والآلهة أتارقتس عند السوريين، والآلهة افروديت إلهة الجمال عند اليونانيين.

وكانـــت الآلهة العزى من أهم وأعظم الأصنام عند قبيلة قريش، وكانت قريش تزورها، وتقدم لها الذبائح، والهدايا، وكانت قريش عندما تطوف بالكعبة تقول: (واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلى).

ويذكر الكلبي أنه بلغنا أن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، قد ذكر العـــزى فقال: (لقد أهديت للعزى شاة عفراء، وأنا على دين قومي). كما ورد ذكـــرها في القـــرآن الكريم، كما أسلفنا عند الحديث عن الآلهة اللات. ويقول الشاعر زيد بن عمرو بن نفيل عند تركه لعبادة الأصنام في الجاهلية:

تـــركت الـــلات والعـــزى جمـــيعاً ... كـــذلك يفعـــل الجلـــد الصـــبور
فـــلا العـــزى أديـــن ولا إبنتـــيها ... ولا صـــنمي بـــني غنـــيم أزور
ولا هـــبلاً أزور وكـــان ربـــاً ... لـــنا في الدهـــر إذ حلمـــي صـــغير

هبل

من أعظم آلهة العرب قبل الإسلام، وقد كان من أهم الأصنام الموجودة عند الكعبة، ويذكر الكلبي إلى أن أول من نصب هبل، هو خزيمة بن مدركة بن الـــياس بـــن مضر، وكان يدعى هذا الصنم هبل خزيمة. والصنم عبارة عن تمثال مصـــنوع من العقيق الأحمر، على شكل إنسان ويده اليمنى مكسورة، ويقال أن قريش صنعت له يداً من ذهب بدلاً من اليد المكسورة.

شيع القوم

يقصـــد بشـــيع القـــوم، أن هذا الإله يرافق القوم كما يرافق الملوك في رحلاتهـــم وحـــروبهم، وكذلك مرافقته للقوافل التجارية، كما أن هذا الإله لا يشـــرب الخمـــر، وهنا نستذكر قول المؤرخ اليوناني ثيودور الصقلي عندما ذكر الأنباط بأنهم لا يعرفون الزراعة، ويمتنعون عن شرب الخمر.

الكتبا

ورد الإلـــه الكتـــبا (Al-Kutba)، في النقوش والكتابات النبطية، التي وجدت في منطقة عين الشلالة في وادي رم. كما ذكر الإله الكتبا في (جيا) وجيا أو الجـــي هـــي بلـــدة وادي موسى. وقد ذكر الإله الكتبا قرب أحد المضافات (Stibadium) الـــتي جاءت على شكل شبه دائري، ويذكر النقش عبارة (كتبا هذا الإله)، كما وجدت إشارات لهذا الأله في النقوش النبطية، المتواجدة في منطقة المدرس في البتراء، حيث وردت أسماء هذا الآله مثل تيم الكتبا. وذكرت النقوش اللحيانـــية في العـــلا في شمال السعودية، اسم هذا الإله حيث وردت عبارة (هنا الكتبا). ويعتبر الإله الكتبا اله الكتابة العربي، المقابل للإله نابو البابلي، الذي كان إلهاً للكتابة أيضاً.

الله

ذكر هذا اللفظ في الكتابات السامية الغربية، وتعني عندهم الإله الأكبر، كمـــا اســـتخدم بهذا المعنى أثناء حكم الملك البابلي سرجون ملك بلاد ما بين

النهرين في حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، وكذلك عند الآراميين حيث ورد في نقوشهم: (بيت آل) أي بيت الله.

كمـــا وجد ذكر (الله) في النقوش الثمودية في مناطق العلا، وكذلك في النقوش الصفوية، وارتبط اسم الله ببعض الأسماء العربية النبطية: مثل رب آيل من ملوك الأنباط وجبريل، وعبدالله ، وتيم الله (Starcky 1966, 985).

تعـــبد الأنـــباط في الأماكن العالية لقربها من السماء ولتوفر العزلة لهم، وكانوا يصلون إليها عبر الأدراج الطويلة، وفي هذه الأماكن والطرق المؤدية إليها نجد تماثيل الآلهة النبطية ومنها الآلهه ذو الشرى والآلهة العزى. وهذا يعطي دلالة أكـــيدة على أهمية ودور الديانة عند الأنباط. ومن طرق الأدراج التي توصل إلى الأماكن الدينية المرتفعة في البتراء، الدرج المؤدي إلى جبل المذبح، والدرج المؤدي إلى جـــبال الخبـــثة، وكـــذلك طـــريق الديـــر، ومنطقة الحبيس. أمّا المضافات (التركلينيوم) والتي كانت عبارة عن ثلاثة مصاطب أو موائد، وأحياناً مصطبتين، أو مصطبة واحدة، أو على شكل دائري، نحتت داخل الحجرات الصخرية أو في العـــراء، في البتـــراء والسيق البارد، وكان الغرض منها (المضافات) عمل الموائد الدينـــية، والجنائـــزية، والاجتماعـــية، وغالباً ما يكون هناك كوة (Niche) في الجـــدران الصخرية لهذه المضافات توضع فيها الألهة، وتوضع القرابين لها. كما نحـــتت الخـــزانات والأحواض الصغيرة لخدمة أغراض هذه المضافات أثناء إقامة المـــآدب الجماعـــية أو العائلية. وقد وجدت المضافات مع المنازل أو بالقرب من المقابر أو في المناطق العالية أو الأماكن الهامة (Tarrier 1980, 38-40; 1986, 254-256).

د. التجارة النبطية

حظيت بلاد العرب بموقع تجاري ممتاز، بين البلاد الأخرى المجاورة، فتقع في قلبها طرق التجارة الدولية في ذلك الزمن، فشمالها يرتبط بدول عظمى، وجنوبها يقع بين الحبشة والهند، وفي وسطها وجدت مراكز ومحطات تجارية تربط بحارها بعضها ببعض وشمالها بجنوبها، وبلاد العرب رغم أهميتها كانت مناطقها وطبيعتها مختلفة، فاختلفت نتيجة لذلك خصائصها التجارية ومرافقها، وبعضها قاحل لا يصلح للزراعة وبعضها ذات أراضي خصبة تصلح للزرع والرعي، وبعضها يصلح للرعي والتنقل، ونتيجة لاختلاف طبيعة هذه الأقطار فقد اختلف كل قطر بمنتجاته وبالتالي بتصديراته، عن القطر الآخر ولعل اختلاف أقطار العرب جعل حركة التجارة مستمرة، فكل قطر يستورد من الأقطار الأخرى حاجاته ويصدر للآخرين ما ليس عندهم (الرشيد ١٩٨٤، ٢١٥-٢١٦).

هناك حقيقة أخرى يجب أن لا ننساها، وهي أن أهمية الطرق التجارية، لا تقتصر على نقل السلع وتحقيق الحصول على الثروة، بل هي في الوقت نفسه شرايين حيوية لنقل الثقافة من بلد لآخر، وعليها تنتقل الأخبار وما يستجد من مذاهب وآراء، وكان كل سوق من الأسواق التي تحط فيها بعض الوقت مكاناً لتبادل الفكر والمعرفة.

شهدت بلاد الأنباط نهضة تجارية وعمرانية من بين أقطار الشرق والغرب. فقد كان الأنباط همزة وصل تجارية، بين أقطار العالم القديم، يحملون إلى الشرق منتجات الغرب من خشب الابنوس وريش النعام ومن عاج وذهب وفضة، وإلى الغرب منتجات الشرق من توابل وإخاوية وفلفل وبهار وقصدير، كما كانوا يحملون إلى كل من العالمين (الشرق والغرب) منتجاتهم النفيسة، وفي

مقدمـــتها الـــبخور، واللؤلؤ، والمرجان، والأحجار الكريمة من عقيق، وجزع، وبقـــران، إلى غير ذلك مما كانت تجود به صناعاتهم، من ثياب وملابس وأثواب مقصبة وبسط مُرَحَّلة.

تســـتند التجارة إلى مقومات أربعة، هي مصادر المواد والسلع ووسائط الـــنقل وطـــرق الـــتجارة، وأخيراً الأسواق النهائية لتصريف السلع والمنتجات المختلفة. وقد توفرت للأنباط جميع هذه المقومات، فبالنسبة للسلع والمواد، فكانوا يســـتوردونها، أو تمـــر من مناطق نفوذهم مواد مختلفة من الهند والصين والجزيرة العربية، وخصوصاً البخور والطيوب والتوابل (غلاب ١٩٨٤، ١٩٤).

شواهدهم الحضارية

كانـــت طبيعة العمارة الإغريقية والمتمثلة بالمعبد الدوري، تشتمل على استعمال الأعمدة والعينات كعناصر إنشائية، لكل منها دور خاص في عملية حمل البناء، وجميعها تعتمد على بعضها بعضاً. فإن إزالة أحد العناصر، يؤدي إلى فقدان التوازن في المبنى (Mckenzie 1990, 87).

أمّا في الواجهات المعمارية في البتراء، والتي تم حفرها في الصخور، نجد أن استعمال العناصر التي من أصلها إنشائية، كالأعمدة، استعملت هنا لسببين؛ فقد وضـــعت الأعمـــدة من أجل زخرفة البناء، وكذلك من أجل استعمال أشكال جديـــدة تعلوها مثل "الأسطح العلوية" (Entablatures) و "الأشكال المثلثة أو القواصر" (Pediments) بأشكال جديدة غير تقليدية.

تضـــمن استعمال الأعمدة الزخرفية وجود عدة أنواع منها، وهي تتمثل بالأعمـــدة الملتصـــقة بالجـــدران (Engaged Columns) والأعمـــدة الربعية (Quarter Columns) الـــتي توضع عادة على الزوايا، كما في واجهة "الخزنة" وعلى واجهة "قبر القصر". واستعمال الأعمدة الملتصقة ميزة معمارية لها أصل في اليونان، حيث وجدت في معبد زيوس في (Arkadas) خلال القرن الخامس قبل المـــيلاد، ووجـــدت الأعمدة المربعة التي تبرز عن الجدران في "معبد الأثينيين" في ديلوس (Delos)، في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد. ونجد الأعمدة الربعية في البتـــراء، علـــى "قبر الجندي الروماني"، وقبر سيكتيوس فلورنتينوس (Sextius Florentinus) (Mckenzie 1990, 88).

أمّـــا بالنسبة لاستخدام الأشكال الجديدة، من المثلثات والمسطحات التي تعلـــو الأعمـــدة، فإننا نجد أن معظمها دائرية (Segmental Pediment)، أو مكســـورة (Broken Pediment)، وتظهر هذه في البتراء في قبر (Sextius Flrentinus) و (Renaissance Tomb) وهـــناك نمـــاذج أيضاً في المثلثات المكسورة، التي لم يتم حفرها على القبر وإنما نجدها منفصلة. بالإضافة إلى نموذج مزخرف بالجص في الجانب الجنوبي من معبد قصر البنت.

و ظهرت في البتراء عدة عناصر زخرفية في النحت البارزة، تتمثل بمعالجة الإفريـــز، والكرنيشة، وزخرفة تيجان الأعمدة بالإضافة إلى زخارف الأعمدة، واللوحات المختلفة. ونجد في هذه الزخارف الأسلوب الشرقي النبطي، ممزوجاً مع الأســـاليب الزخرفية الكلاسيكية. ومن أكثر الأشكال أو المواضيع المكررة هي زخـــرفة الكرمة، والتي يمكن اقترانها مع الآله "ذو الشرى" النبطي. تتضمن هذه الزخرفة أشكال ورود مبسطة وسط أوراق ومتعرشات الكرمة، كما نجدها على

أفاريز الخزنة. وقد غلب على الأشكال التناظر مع بعض الواقعية في عناقيد العنب وأوراق الأكانـــث (Hammond 1973, 83). وقد جاءت هذه الأشكال من واقع الحياة حيث كثرت كروم العنب ومعاصر النبيذ، كما أنها مألوفة في الفنون الشـــرقية. وقد أضاف الأنباط أشكال الرؤوس الآدمية، والتماثيل النصفية، على تـــيجان الأعمـــدة والأفاريـــز، ورافقت اللفائف النباتية. وكذلك وجدت عدة زخارف أخرى بينها إضافة شكل الجرة، والنسر والأقنعة الآدمية (Hammond 1973, 83).

و تأثرت الحضارة النبطية أو الفن النبطي، بغيره من الحضارات المجاورة، أثرت في واجهات المباني وفي الأساليب الفنية لبنائها. ساهم في هذا التأثير موقع البتراء، وعمل سكانها بالتجارة، حيث كانوا يذهبون إلى كل من مصر، وسوريا، وبـــلاد الـــرافدين، والـــيونان، وإيطاليا وشبه الجزيرة العربية، مؤثرين ومتأثرين وبالعكس أيضاً حيث كانت البتراء تستقبل الزائرين من الحضارات الأخرى.

اســـتخدام الأنباط لبعض الأشكال والرموز التي وجدت في الحضارات الأخرى وفيه نرى:

١. تأثير الفن المصري على عناصر بعض الواجهات في البتراء، كالمسلات في مدفن المسلات (Obelisk Tomb) والكرنيش (Cavetto) والذي يعود لجذور مصرية، وظهور الآلهة إيزيس على واجهة الخزنة.

٢. تـــأثير الفن الآشوري "وبلاد ما بين النهرين"، ويبدو واضحاً في خطوة الغـــراب (Crow Steps)، والـــتي تزين أغلب واجهات مقابر البتراء، ويرجع أصلها إلى المعابد الآشورية، التي وجدت في بلاد ما بين النهرين،

وظهور الجرار مثلاً في واجهة الخزنة، وأشكال الأسود التي وجدت على جدران البتراء والتي ترمز لمعنى ديني.

٣. الـــتأثير السوري ويبدو واضحاً في تمثال النسر، الذي يزين واجهة الخزنة وأيضاً الأقواس النصف دائرية التي ظهرت على واجهة البتراء.

٤. الـــتأثير الهلنســـتي: استعمال الأعمدة الكورنثية والـــ (Pediments) باختلاف أشكالها ووجود تماثيل أنصاف الآلهة اليونانية (التوأمان كاستور وبـــولس) (Castor and Pollux) وتماثيل مدوسا (Medusa) والتأثر بالمبادئ الهلنستية في تخطيط مدينة البتراء.

بالرغم من تأثر الأنباط بالحضارات الأخرى، إلا أنها أخذت هذه العناصر وعالجها الأنباط بطريقة خاصة، ميزتهم عن مواطن هذه العناصر الأصلية، وطوروها بحيث تناسبهم، وابتكروا أساليبهم الخاصة.

٥. بـــدايات ظهـــور الطابع الباروك في عمارة البتراء (Baroque)، وأول دلائـــل ظهـــورها هـــي استخدام العناصر الإنشائية كعناصر وسطوح للـــزخارف، كمـــا في الأعمـــدة غـــير الإنشائية والتي تتصل بالجدران والأعمـــدة وجـــود عمـــودين متصلين معاً (Engaged Columns)، وظهـــور (Broken Pediment) وهو عبارة عن عنصر إنشائي دائري ويظهر في واجهة الخزنة (Mckenzie 1990, 92)).

وبالـــرغم من تأثر الأنباط بالحضارات والفنون الأخرى، إلا أنها تميزت بعمارة محلية واضحة في معظم مبانيها، جاءت نتيجة عوامل بيئية ومعتقدات دينية معينة، استطاع الفنان النبطي خلق أساليب خاصة به، جعلت مدينة البتراء فريدة من نوعها.

١. الأدوات التي استخدمها الأنباط، في بناء هذه الحضارة، وفي قطع الحجارة وحفـــرها، وأساليب العناصر الزخرفية، والدقة التي تم فيها العمل، كان دلـــيلاً علـــى التخطيط المسبق، ووضع المخططات والرسومات من قبل المعماريين الأنباط جاءت هذه العمارة محلية تناسب طبيعة الموقع الجغرافية والوظيفية (Hammond 1982, 231-235).

٢. ومن الأمور الهامة عملية العزل الحراري حيث أن فرق درجات الحرارة مـــا بين الليل والنهار، والصيف والشتاء كبير جداً، فالجدران الخارجية كانـــت من ثلاث طبقات، الطبقة الخارجية تتكون من الحجارة المربعة المصـــقولة، والتي وضعت بعناية ودقة، حتى تمنع تبخر الرطوبة الداخلية، والطبقة الداخلية المواجهة للبناء من الداخل، بنيت من حجارة مقطوعة مع الحجارة الصغيرة، والطين في الفواصل ما بين البلاطات الحجرية أمّا بـــين صفوف الحجر القطع الحجرية، الصغيرة والطين لإعطاء المزيد من العزل.

٣. أخـــذ الأنباط عن اليونان الأعمدة ذات التاجيات الكورونثية، ولكنهم طـــوروها ونتج عنها التاجيات النبطية الخاصة الممتلئة، في وجود أربعة زوايـــا بارزة، يزينه زخارف في الوسط عبارة عن وردة أو دائرة بارزة، واستخدام التاجيات بدون أعمدة كقاعدة لبعض التماثيل كما في واجهة الخزنة –الجرة والنسر– وقد ظهرت الأعمدة النبطية على أغلب واجهات مباني البتراء كالدير وقصر البنت.

٤. معالجـــة السطوح الداخلية وبعض الأحيان الخارجية، بالخطوط المتوازية والمائلـــة بـــزاوية ٤٥°، وقد كانت لتثبيت طبقة البلاستر لوضع لوحات

الفريسكو الملونة لتزين هذه الجدران، وظهرت في الخزنة، ومدفن المسلات، والمحكمة وغيرها من المباني.

٥. زخارف الواجهات المتلثة في (Metope , Triglyphs) وقد اتخذت (Metope) أشكالاً عديدة كالتي في قصر البنت، فخرجت عن كونها مجرد دائرة بارزة، فجاء فيها أشكال التماثل وزخارف الوردة (Mckenzie 1990, 97).

٦. المنحوتات والتماثيل النبطية والتي تميزت بمميزات خاصة كالعيون والأنف والملابس وطريقة تصفيف الشعر. وتميزت التماثيل النبطية بالخطوط شبه المستقيمة أكثر من كونها مستديرة. وتصفيف الشعر بالشكل اللولبي، والذي تميزت فيه التماثيل الآشورية من قبل، وتميزت العيون بخروج حدقة العين من تجويفها وتبرز للخارج، وتحاط العين بجفون غير مهشمة، والأنف سطحه منبسط.

وإشتهر الأنباط بفخارهم المميز في صناعته، ورقته، ونعومته، وكذلك جمال زخارفه، وهذا يدل على ازدهار هذه الحضارة. ويعتبر الفخار النبطي الذي صنع في القرن الأول الميلادي من أجود وأجمل ما صنع الأنباط من فخار (Khairy 1982, 275-283)

انتشرت صناعة الفخار النبطي وتم تداوله في جميع أرجاء مملكتهم الواسعة، وحاول نلسن جلوك (Glueck) في الثلاثينات من هذا القرن، تحديد المواقع النبطية من خلال وجود الفخار النبطي فيها (Glueck 1935, 36) وتم العثور على بعض مراكز وافران تصنيع الفخار النبطي في مناطق عديدة من المملكة النبطية، حيث عثر على أفران في منطقة الزرابة في البتراء، وفي موقع عبده

(Oboda) النبطية في صحراء النقب، وفي منطقة بير مذكور، وغيرها من المواقع النبطـية الأخرى. كانت صناعة الفخار النبطي تتم باستعمال الدولاب السريع، فصـنعوا الأطباق الواسعة والزبادي والأباريق والجرار وأدوات الطبخ والكؤوس والأسرجة والمطرات، وكان أعداد منها يتم تلوينه ودهنه(Murray 1940). وقد تـنوعت ألوان وأشكال وزخارف هذا الفخار الدقيق والرقيق الصنع، وامتازت الأواني الفخاريـة بألـوانها الزاهية، وجمال زخارفها التي تراوحت بين الأشكال الهندسـية، كالخطـوط المستقيمة والمثلثات والدوائر النصفية والأشكال المعينية والـنقاط والأشكال الشبكية، وظهرت الأشكال والزخارف النباتية، كأغصان النخـيل والـثمار والورود والكرمة والرمان والتوت (Glueck 1982, 209-211).

يعود الفضل في دراسة الفخار النبطي الملون الرقيق ودراسة أشكاله، إلى جورج هورسفيلد وزوجته أجنس (George and Agnes Horsfield)، ففي عام ١٩٣٠ بدأ حفرياته في مدينة البتراء، وعثر أثناء ذلك على كميات كبيرة من القطـع والأدوات الفخاريـة النبطية وخاصة الملونة منها. كما درست كروفت (Croft) في الثلاثينات من القرن الماضي القطع الفخارية النبطية في موقع سبيطة في صحراء النقب. كما درس هذا الفخار من قبل مورية وإليس (Murray and Ellis)، وخاصـة الـنماذج الفخارية التي تحتوي على زخارف مختلفة، ومنها الرسومات التي على شكل حيوان وطير.*

---

* المعلـومات الواردة في هذا الفصل (الفصل الرابع) مستمدة من كتاب الأستاذ الدكتور زيدون المحيسن- البتراء مدينة العرب الخالدة. مطبعة وزارة الشباب، عمان،١٩٩٦.

الفصل الخامس

الغساسنة

- ظهورهم التاريخي
- ملوك الغساسنة
- الغساسنة في علاقاتهم
- شواهدهم الحضارية

ظهورهم التاريخي:

الغساسنة من أزد اليمن، نزحوا تحت قيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء (عاقل ١٩٨٨: ١٤٢؛ حتي وآخرون ١٩٨٦" ١١٥؛ وسالم ١٩٥: ١٩٨٠؛ وحتي ١٩٥٨: ٤٤٦) من جنوب الجزيرة العربية إلى الشمال (عبودي ١٩٨٨: ٦٣٤؛ وديسو ١٩٥٩: ١٠، (Khalidi 1956:195) ثم استقروا في المنطقة الجنوبية الشرقية لدمشق (Muller 1979: 130). يقول المؤرخون أنه أُطلق عليهم "أزد غسان" على أساس انهم قحاطنيون جاءوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب[1] (معروف ١٩٧٥: ٩٩؛ Khalidi 1956: 196)) أو أنهم جاؤا من الحجاز على رأي من يعتبرهم عدنانيون (معروف ١٩٧٥: ٩٩) وهم بطون شتى من الأزد، وقيل أن فيهم أيضاً من غير الأزد (الأندلسي ١٩٦٢: ٤٧٢) وقد ذكر الاصفهاني أن هجرة الغسانيين من جنوب الجزيرة العربية بحوالي أربعمائة سنة قبل ظهور الإسلام، وهناك عدة أسباب ذكرها المؤرخون العرب لهجرة الغساسنة منها: انهيار سد مأرب ، والعامل الاقتصادي الذي نادراً ما يذكر في المصادر التاريخية، على أنه عامل مهم أدى لهجرة هذه القبائل من جنوب الجزيرة العربية .(Khalidi 1956: 196)

ويزعم نسابوا العرب أن هؤلاء الأزد لم يرحلوا إلى الشام مباشرة، وإنما أقاموا حينا من الوقت في تهامة بين بلاد "الأشعريين" و"عك" على ماء يقال له

---

(1) سد مأرب ثم بناؤه في مراحل متعددة، وكان الأقدم في الجزء الأخير مـن الفترة السبئية (٦٥٠-٩٥٠ق.م) وقد تعرض لعدة انهيارات قبل المرة الأخيرة بين (٥٤٢ و ٥٧٠ ق.م) الباقي من هذا السد يمكن مشاهدته على بعد ستين ميلاً شرق سانا (Sana) (Khalidi .1956: 196)

غسان فنسبوا إليه (عاقل ١٩٨٨: ١٤٣؛ سالم١٩٨٠: ١٩٥؛ علي ١٩٧٠: ٣٨٧؛ الأندلسي ١٩٦٢: ٤٦٢؛ وسيدويو ب. ت: ٣٠؛ Khalidi 1956: 199). ولكن من غير المعروف أن هذا الماء أو النبع أو النهر كان موقعه في اليمن، أو مكة، أو سوريا ومن المستحيل أن نعرف بسبب أدلة متناقضة ومعقدة (Khalidi 1956. 199).

ويسمى الغساسنة أيضاً بآل جفنة وبأولاد جفنة (علي ١٩٦٩: ٣٨٧) لأن الشعراء المعاصرون والحوادث التاريخية أجمعت على أن جد الأسرة كان يسمى جفنة (نولديكة ١٩٣٣: ٣).

وكذلك يسمون بآل ثعلبة، نسبة إلى جد لهذه الأسرة يعرف بثعلبة بن مازن (عاقل ١٩٨٨: ١٤٣؛ سالم ١٩٨٠: ١٩٦؛ علي ١٩٧٠: ٣٩١).

وكان يسكن مشارف الشام قبل نزوح الأزد الغساسنة قوم يعرفون بالضجاعمة من قبائل بني سليح بن حلوان من قضاعة (عاقل ١٩٨٨: ١٤٤؛ سالم ١٩٨٠: ١٩٧؛ علي ١٩٦٩: ٣٩٢؛ حتي ١٩٥٨: ٤٤٦) وقد غلبهم الغساسنة وحلوا محلهم (سالم ١٩٨٠: ١٩٧؛ نولودكة ١٩٣٣: ٦).

يقول بعض الروائيين أن دخول الغساسنة في الشام وتغلبهم على الضجاعمة لم يكن أمراً يسيراً تم بدون حرب (عاقل ١٩٨٨: ١٤٤)، وقد زعم بعض أهل الأخبار أن اليوم الذي انتصر فيه الغساسنة على الضجاعمة هو "يوم حليمة" (علي ١٩٦٩: ٣٩٨). والبعض الأخر يقول أن الغساسنة عندما جاؤوا إلى دمشق خيموا في البلقاء وهي ارض تابعة للضجاعمة الذين سألوهم الإذن والموافقة للإقامة هناك، وقد قام رئيس الضجاعمة بإرسال كتاب إلى إمبراطور روما في ذلك الوقت واسمه "نسهر" الذي وافق على إقامة الغسانيين بشرط

اعترافهم بمملكته ودفع الخراج (Khalidi 1956: 197) والى هذا الرأي يذهب اليعقوبي وحمزة الاصفهاني (Khalidi 1956: 197) ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الإخباريين يقدمون أدلة على كلامهم هذا، ولكن للأسف لا توجد أدلة مادية قاطعة تؤكد هذا الكلام.

وما هي إلاّ بعض الأعوام فإذا غسان قد تنصرت واصطبغت بالصبغة السورية واتخذت الآرامية لغة لها، إلا أنها لم تهجر لسانها العربي الأصلي، بل أن أبناءها أصبحوا كغيرهم من قبائل العرب في الهلال الخصيب مزدوجي اللغة (حتي وآخرون ١٩٨٦: ١١٦) وقد ذكر أهل الأخبار أن "بني سليح" بعد احتلال الغساسنة لأرضهم بقوا في بلاد الشام، إذ ذكرهم في أخبار الفتوح، وكانوا في جملة من أقام على النصرانية من عرب الشام، وقد أسلم قسم منهم، وكانوا في "قنسرين" في أيام المهدي (علي ١٩٦٩: ٣٩٢). وقد كان الضجاعمة من القبائل العربية المعروفة قبل ظهور الإسلام، وكانوا مثل سائر القبائل المستعربة المستنصرة ضد الإسلام، وقد وقفوا مع "دومة الجندل" في عنادهم ومقاومتهم لخالد بن الوليد (علي ١٩٦٩: ٣٩٥).

ملوك الغساسنة:

أول أمراء الغساسنة وفقاً لحمزة الأصفهاني هو جفنة بن عمرو مزيقياء (عاقل ١٩٨٨: ١٤٥؛ سالم ١٩٨٠: ١٩٨؛ فروخ ١٩٦٤: ٧٠) ويذكر أن جفنة ملك في أيام أناستازيوس الأول (٤٩١-٥١٨)م على عرب الشام (عاقل ١٩٨٨: ١٤٥؛ ١٩٨٠: ١٩٨) فلما مَلك قام بقتال قضاعة من سليح الذين يدعون بالضجاعمة، ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم، وبني جلق والقرية،

وعدة مصانع ثم هلك. وكان ملكه خمساً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، والى هذا الرأي ذهب الأصمعي حيث قال:"وجفنة أول ملك مَلَك من غسان واليه تنسب ملوك غسان التي ذكرها حسان بن ثابت الأنصاري في شعره" (علي ١٩٦٩: ٣٩٩).

ولكن المسعودي وابن قتيبة يخالفان حمزة الاصفهاني والأصمعي، ويذكران أن أول من تولى ملك الغساسنة هو الحارث بن عمرو بن عامر (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٦؛ علي ١٩٦٩: ٣٩٩) وسمي "بمحرق" لأنه أول من حرق العرب في ديارها (علي ١٩٦٩: ٤٠٠). ويذهب سيديو إلى أن من ملك على الغساسنة اسمه ثعلبة، ثم خلفه في الحكم جفنة الأول أصل العائلة الغسانية (سيديو ب.ت: ٣٠).

وتولى بعد جفنة ابنه عمرو بن جفنة، الذي أقام عدداً من الأديرة منها: دير حالي، ودير أيوب، ودير هناد (عاقل ١٩٨٨: ١٤٥؛ سالم ١٩٨٠: ١٩٨) واستمر حكمه خمس سنين (علي ١٩٦٩: ٤٠٠).

والخلاف دائم عند الإخباريين حول أول من ملك من أمراء غسان وحول ترتيبهم وسنين حكمهم، ولكن أول من يثق في صحة إمارته هو جبلة بن الحارث بن ثعلبة، الذي ذكره ثيو فانيس تحت اسم جبلس (Jabalac) (عاقل ١٩٨٨: ١٤٥؛ سالم ١٩٨٠: ١٩٨؛ علي ١٩٦٩" ٤٠٣)، والذي ذكره اليونان من أول أمراء غسان في خدمة الروم ولم يذكروا والده ولا لقباً يمتاز به، وإنما قالوا انه نصرهم سنة (٩٤٧م) فأخمد ثرورة أقلقت راحتهم، فمنحوه رتبة فيلارك (Phlarch) أي أمير أو رئيس قبيلة. ويرى نولدكه أن جبلة هذا هو والد

الحارث بن جبلة، اكبر ملوك الغساسنة وأكثرهم ذكراً في كتب اليونان من (٥٢٩-٥٦٩م) (زيدان ب.ت: ٢١٤).

الحارث بن جبلة الغساني

أول أمراء الغساسنة العظام الحارث بن جبلة بن الحارث الجفني (٥٢٩-٥٦٩م) (سالم ١٩٨٠: ١٩٩؛ ديسو ١٩٥٩: ٣٢) الذي امتد سلطانه للشمال إلى نهر الفرات (Euphrates)، وللجنوب في أراضي الأردن الشرقية (Muller 1979: 130). ويرى جواد علي أن حكمه كان قبل سنة (٥٢٩) للميلاد بقليل، إذ ذكر أنه حارب المنذر (Almundarus) وانتصر عليه في شهر نيسان من سنة (٥٢٨) للميلاد . (علي ١٩٦٩: ٣ ٤٠٣؛ ديسو ١٩٥٩: ٣٢؛ نولدكه ١٩٣٣: ١٠؛ زيدان ب. ت: ٢١٤) ومعنى ذلك أنه ولي الحكم في هذه السنة أو قبلها بقليل(علي ١٩٦٩: ٣ ٤٠٣).

والحارث بن جبلة هو الذي ذكره المؤرخ السرياني " أيونيس ملالاس" على أنه كان عاملاً للروم (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٦؛ سالم ١٩٨٠: ١٩٩؛ علي ١٩٦٩: ٣ ٤٠٣) وتكاد المصادر العربية تجمع على انه ابن امرأة تسمى مارية ذات القرطين (سالم ١٩٨٠: ١٩٩؛علي ١٩٦٩: ٣ ٤٠٣؛ الأندلسي ١٩٦٢: ٣٧٢). وقد استدل من الأبيات الشعرية للذبياني أن هذا الحارث هو الحارث الأكبر (نولدكة ١٩٣٣: ٣٨).

وكان الحارث بن جبلة معاصراً للإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)، كما كان معاصراً للملكين من الفرس هما: كسرى قباذ (٤٤٨-٥٣١م) وكسرى أنو شروان (٥٣١-٥٧٩م) (سالم ١٩٨٠: ١٩٩). وقد كان في عصره نزاعاً

كبيراً بين الغساسنة والمناذرة، وربما بسبب الأراضي التي أطلق عليها الروم اسم "ستراتا" (Strata) وهي البادية الواقعة جنوبي تدمر على حد قول بروكوبيوس – فقد ادعى كل منهما أن قبائل العرب الضاربة في هذه الأراضي تخضع لسلطانه وأنها تدفع له الجزية، وعلى هذا النحو قامت الحرب بينهما (عاقل١٩٨٨: ١٤٦؛ سالم ١٩٨٠: ٢٠١؛ علي ١٩٦٩: ٤٠٨؛ نولدكه ١٩٣٣: ١٨)، ورد ذكر هذه الحرب في الأخبار الفارسية (نولدكة ١٩٣٣: ١٨) وزاد الصراع بين الغساسنة والمناذرة حينما اتخذ البيزنطيون الغساسنة حلفاء لهم واتخذ الفرس اللخميون حلفاء لهم أيضاً (اسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٥ ؛ Muller 1979: 130).

كان الحارث مسيحياً على المذهب المونوفيزيتي (Monophysites) أي مذهب الطبيعة الواحدة (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٧؛ علي ١٩٦٩: ٤٠٨)، وكان قد تولى الدفاع عن المونوفيزيتين لتحريريهم من اضطهاد البيزنطيين لهم، ونشر بذلك المذهب المونوفيزيتي في بلاده (حتي ١٩٥٨: ٤٤٨). وظل الحارث طوال سنين حكمه حامياً للكنيسة المونوفيزية، ويعتقد أنه لم يكن محبوباً في بلاط الروم لا من القياصرة البيزنطين ولا من بطارقة القسطنطينية (نولدكة١٩٣٣: ٢١)، وكان ابنه المنذر من بعده يسير على سياسة أبيه (سالم ١٩٨٠: ٢٠٣).

وتقديراً لجهود الحارث في ضبط الأمور ورعاية مصالح الروم في الشام، منح الإمبراطور جستنيان الحارث لقب ملك (Basileus) عام ٥٣١م (علي ١٩٦٩: ٤٠٥) ولكن نولدكة يشك في منح الحارث لقب "ملك" لأن هذا اللقب كان قاصراً على قيصر الروم وحده (نولدكة ١٩٣٣: ١١)، ويعتقد انه لقب البطريق (Patricius) أو لقب شيخ قبيلة (Phylarcos) (phylarkos)

(phylarchus) (علي ١٩٦٩: ٤٠٦). ويتفق معه مولر (Muller)في إعطائه لقب بطريق أو شيخ قبيلة (Muller 1979: 130).

ولقب البطريق من ألقاب الشرف الفخمة عند الروم، ولذلك فلم يكن يسمح إلا لعدد قليل من الخاصة، ولصاحبه امتيازات ومترلة في الدولة، حتى أن بعض الملوك كانوا يحبذون الحصول على هذا اللقب من القيصر (علي ١٩٦٩: ٤٠٦).

ومن الجدير بالذكر أن لقب فيلاركوس (Phylarcos) رئيس قبيلة أو شيخا – يعتبر من أعلى المراتب بعد السدة القيصرية، فلا يفوقها إلا رتبة الإمبراطور نفسه[1] (حتي وآخرون ١٩٨٦: ١١٦). على كل حال، لا ريب في أنه كان لأمراء غسان مترلة سامية جداً في مراتب الدولة البيزنيطة، كما أنه لا ريب أيضاً في أن عامة الناس في الشرق ما كانوا ليدققوا كثيراً في معنى هذه الألقاب ودرجاها، فكانوا يطلقون على من كانت له سلطة كسلطة بني غسان ووجاهة كوجاهتهم لقب "ملك" وكفى (نولدكة ١٩٣٣: ١٦).

وقد ذكر أن الحارث بن جبلة غزا فلسطين فيما يقرب من (٥٠٠م) (ديسو ١٩٥٩: ٣٢)، وذكر عنه المؤرخ "ملالا" أنه أخمد ثورة السامريين الذين ثاروا في فلسطين سنة ٥٢٩م (علي ١٩٦٩: ٤٠٥؛ نولدكة ١٩٣٣: ١٠). ويتبين من رواية المؤرخين "بروكوبيوس" "وملالا" أن الحارث بن جبلة كان قد

(1) الثابت من النصوص أن الرومان لم يطلقوا على رؤساء العرب إلا لقبي بطريق (Patriicius) وفيلاركوس (Phylarscus) ومعناه عامل أو رئيس قبيلة وسمحوا لهم بأن يضعوا لفظ فلافيوس (Flavius) قبل أسمائهم، وهي من تسميات الأباطرة الرومان، فقالوا" فلافيوس المنذر البطريق" (زيدان ب. ت ٢١٥).

اشترك في المعركة التي نشبت بين الفرس والروم في (١٩) نيسان سنة (٥٣١م) وانتهت باندحار الروم، وكان قائدهم فيها "بلزاريوس" (علي ١٩٦٩: ٤٠٧؛ ونولدكة ١٩٣٣: ١٧).

وقد أثار تصرف الحارث في الحرب التي نشبت في سنة (٥٤١م) بين الفرس والروم شك الروم في إخلاصه لهم والحذر منه، حيث أنه اتبع طريقاً أخرى غير طريق الجيش، فحمل الروم على الشك في صداقته لهم، وجعلهم يحذرون منه ويراقبون حركاته (علي ١٩٦٩: ٤٠٧؛ نولدكة ١٩٣٣: ١٨). لذلك عندما رحل الحارث في سنة (٥٦٣م) إلى القسطنطينية للاتفاق مع الحكومة البيزنطية على من يخلفه من أولاده بعد وفاته، وليبحث الخطط العسكرية اللازمة لمواجهة عمرو بن المنذر، لم يحظ بمقابلة لائقة، ولم يمض زمن كثير حتى عاد الغساسنة والمناذرة للقتال، حيث وقعت الحرب حوالي عام (٥٤٤م) ووقع فيها احد أبناء الحارث في يدي المنذر الذي قدمه كذبيحة للآلهة "العزى" (نولدكة ١٩٣٣: ١٨). واستمر القتال بينهما حتى انتصر الحارث على خصمه المنذر بن ماء السماء – ملك المناذرة – وتمكن من قتله قرب قنسرين (Ghalcis) في موقعة تعرف بـــ (مرج حليمة) [1] في شهر حزيران سنة (٥٥٤م) (معروف ١٩٧٥: ١٠٠؛ علي ١٩٦٩: ٤٠٨؛ حتي ١٩٥٨: ٤٤٨؛ نولدكة ١٩٣٣: ١٩؛ Muller 1979: 130) وكان من أسباب هذه المعركة: النزاع على الأراضي الممتدة بين دمشق وتدمر، عندما ادعى ملك الحيرة أن قبائلها خاضعة له. (معروف١٩٧٥: ١٠٠).

(1) مـــن المؤرخين مـــن يجعل هذه المعركة معركة "عين اباغ" قرب الجيزة (نولدكة ١٩٣٣ : ٢٠).

توفي الحارث بين جبلة – الذي يقال له أيضاً الحارث بن أبي شمر لأن أباه كان يكنى بأبي شمر – (نولدكة ١٩٣٣: ٢٢) في آخر سنة (٥٦٩م) أو في أوائل عام (٥٧٠م) بعد أن قضى في إمارته أطول مدة في عهود أمراء الغساسنة وهي أربعون عاماً (اسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٧؛ سالم ١٩٨٠: ٢٠٤؛ علي ١٩٦٩: ٤١٢). وقد ذكر اسمه في الوثائق الكنائسية لسنتي (٥٦٨م) و(٥٦٩م) حتى ربيع سنة (٥٧٠م) حين بدئ بذكر ابنه المنذر (نولدكة ١٩٣٣: ٢٤).

ويشغل الحارث مكانة عظيمة في نفوس العرب، إلى حد أن كتاب العرب القدماء كانوا يطلقون على كل أمير غساني حقيقي أو من خيالهم اسم الحارث بن أبي شمر (سالم ١٩٨٠: ٢٠٤).

المنذر بن الحارث

بعد وفاة الحارث بن جبلة انتقلت الإمارة إلى ابنه المنذر (٥٦٩-٥٨١م) المعروف في المصادر اليونانية، واللاتينية، والسريانية باسم (Almaundaros) (Almandaros) (علي ١٩٦٩: ٤١٢؛ نولدكة ١٩٣٣: ٢٤) وقد خلف الحارث ابنه المنذر في نحو نفس الوقت الذي ولد فيه النبي محمد (ص) (حتي ١٩٥٨: ٤٤٩). ويذكر حمزة الاصفهاني أنه كان يلقب بالمنذر الأكبر، تمييزاً له عن أخيه المنذر الأصغر (سالم ١٩٨٠: ٢٠٤).

والمنذر هذا هو أبو كرب الذي ذكر اسمه في نص سرياني عثر عليه في إحدى ضواحي تدمر، وهو نص ديني ورد فيه اسم الاسقفين: يعقوب وثيودور – وهما: يعقوب البرادعي وصاحبه (علي ١٩٦٩: ٤١٣؛ نولدكة ١٩٣٣: ٢٧).

ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي جستين الثاني (٥٦٥-٥٧٨م) لم يكن راضياً عن المنذر بن الحارث، وان العلاقة ساءت بينهما حتى انتهت إلى جفوة (علي ١٩٦٩: ٤١٣)، والسبب في ذلك يرجع إلى تعصب المنذر الشديد للمذهب المونوفيزيتي (حتي وآخرون ١٩٨٦: ١١٨؛ سالم ١٩٨٠: ٢٠٥). فذكر أن الإمبراطور أوعز إلى البطريق "مرقيانوس" بأن يدبر حيلة لقتل المنذر، ولكن المنذر أحس بهذه المكيدة ففر إلى البادية وأعلن العصيان على الإمبراطور جستين مدة ثلاثة سنوات (حتي وآخرون ١٩٨٦: ١١٨) وأثناء ذلك أغار اللخميون على سورية واعملوا النهب والسلب والفساد فيها، فاضطر البيزنطيون إلى مصالحة المنذر بن الحارث، وتم ذلك في بلدة الرصافة عند قبر القديس سرجيوس في أواخر أيام الإمبراطور جستين، وبواسطة مبعوث القسطنطينية البطريق جستنيان (علي ١٩٧٠: ٤١٣، نولدكة ١٩٣٣: ٢٤). ويظهر أن هذه المصالحة تمت في صيف (٥٧٨م) لأن القيصر جستين توفي في ٢ تشرين أول سنة (٥٧٨م) (نولدكة ١٩٣٣: ٢٦).

ولم يكد المنذر يستلم زمام الحكم حتى هب لمحاربة الغساسنة، الذين كانوا قد أغاروا بعد وفاة أبيه على سوريا (نولدكة ١٩٣٣: ٢٤) وانتصر عليهم واحرق مسكنهم الحيرة (Muller 1979: 130) ونتيجة لذلك قام الإمبراطور تيبريوس الثاني (Tiberius II) (٥٧٨-٥٨٢) بالإنعام عليه بالتاج بعد أن كانوا يمنحون الإكليل لعمالهم العرب (معروف ١٩٧٥: ١٠٠؛ نولدكة ١٩٣٣: ٢٦؛ Muller 1979: 131) ولكن نولدكة يرى أن الروم لم يمنحوا عمالهم العرب على بلاد الشام من قبل إلا الأكاليل ودرجته دون درجة التاج، وقد أغدق القيصر على المنذر الهدايا الثمينة، ومن بينها مصوغات ذهبية وفضية مما لم ينعم به

على أي ملك عربي من قبل، كما انعم على ولديه بدرجات عسكرية (علي ١٩٦٩: ٤١٤).

غير أن الروم عادوا واختلفوا معه لأسباب دينية وسياسية، ومنها أنه كان مثل والده من المؤمنين بمذهب الطبيعة الواحدة ومن المدافعين عنه (نولدكة ١٩٣٣: ٣٠) فأوعزوا إلى ماجنوس (Magnus) حاكم سوريا الروماني للتخلص منه. وبالرغم من كونه صديقاً للمنذر إلا انه لم يجد بداً من تنفيذ الأمر الصادر إليه، فدعا المنذر لحضور حفل افتتاح كنيسة شيدها في بلدة حوارين بين تدمر ودمشق، وتم القبض عليه بعد أن انخدع بهذه الدعوة (اسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٩؛ علي ١٩٦٩: ٤١٦؛ نولدكة ١٩٣٣: ٣١) وقد تم ذلك في أيام القيصر تيبريوس (Tiberius) أي في سنة (٥٨١م) أو بالأحرى في أوائل سنة (٥٨٢م) (علي ١٩٦٩: ٤١٦؛ نولدكة ١٩٣٣: ٣١).

ثم جرى نفيه إلى القسطنطينية وبعد انتقال العرش إلى موورقيوس (Mauricius) تم نقله إلى جزيرة صقلية جنوبي ايطاليا عام (٥٨٢م) حيث توفي هناك (معروف ١٩٧٥: ١٠٠؛ Muller 1979: 131) وقد استمرت فترة حكم المنذر نحو ثلاث عشرة سنة (نولدكة ١٩٣٣: ٣١).

وذكر المؤرخون أن المنذر بنى صهاريج لإيصال الماء إلى الرصافة مدينة القديس سرجيوس ذي المكانة العظيمة عند عرب الشام. وظهر من كتابة عثر عليها في أنقاض كنيسة في الرصافة، أن المنذر بنى أو جدد بناء تلك الكنيسة. وذكر أيضاً أن المنذر لما كان في القسطنطينية طلب من البيزنطيين مساعدته في بناء قصر يكون اعظم قصر غساني بنى حتى أيامه، وذلك بأن يرسلوا إليه أحسن المعماريين والبنائين، فلبى البيزنطيون طلبه، ومن أبنيته الخربة المعروفة اليوم ببناء

يعرف باسم "البرج" وقد عثر على اسمه مدوناً على حجارة ذلك البناء (علي ١٩٦٩: ٤١٣).

وبعد ذلك قطعت الإعانة السنوية التي كان الروم يدفعونها للغساسنة، فثار أبناؤه الأربعة بقيادة أكبرهم: النعمان بن المنذر، وتحصنوا هناك في البادية العربية واخذوا بمهاجمة الروم وغنموا غنائم عظيمة، والقوا الرعب في قلوب حامية بصرى التي كانت اعظم مركز حربي في تلك البلاد بعد دمشق (نولدكة ١٩٣٣: ٣١). وعن هذا الأمر يقول حنا الأفسس بأن العرب أرغموا كثيراً من هذه الحاميات على التخلي عن ذخائرها الحربية، وقام أبناء المنذر الأربعة بمهاجمة المعسكر البيزنطي في مدينة بصرى، وتمكنوا بمساعدة السكان العرب من استعادة أموال أبيهم التي كانت مصادرة فيها، وتتابعت هذه الغزوات في أيام النعمان بن المنذر حتى شملت بادية الشام، غير أن البيزنطيين احتالوا على النعمان بن المنذر (فروخ ١٩٦٤: ٧٢) وتمكنوا من أسره سنة (٥٨٣م) وإرساله إلى القسطنطينية (اسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٩؛ معروف ١٩٧٥: ١٠٠). وثم إلى (Ctesiphon) حيث تم قتله سنة ٦٠٢م (Muller 1979: 131). أما مدة حكم النعمان ليس من السهل تحديدها، ولكن ذكر حمزة أن النعمان حكم سنة واحدة فقط ويستند في ذلك إلى رواية قديمة (نولدكة ١٩٣٣: ٣٣).

غمرت حالات الفوضى بلاد غسان بعد عهدي المنذر والنعمان، وتفككت عرى الوحدة في بلاد الشام (حتي وآخرون ١٩٨٦: ١١٨) فذكر نولدكة نقلا عن يوحنا الأفسي أن عرب غسان بعد القبض على النعمان تفرقوا وانقسموا إلى خمس عشرة فرقة لكل منها رئيس فدخلت بعض هذه الفرق في سلطان فارس، ورحل بعضها إلى بلاد الروم (نولدكة ١٩٩٣: ٣٣) والبعض

الأخر إلى قباذق (Cappadocia) (سالم ١٩٨٠: ٢٠٨؛ نولدكة ١٩٣٣: ٣٤) ودخل من هاجر إلى بلاد الروم في مذهب الطبيعتين (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٩؛ سالم ١٩٨٠: ٢٠٨).

ويختلف الأخباريون العرب في ذكر أسماء أمراء غسان بعد المنذر اختلافاً كبيرا في الوقت الذي ينقطع الاخباريون اليونان عن الحديث عنهم، ولكن مما لا شك فيه أن من تولى من أمراء الغساسنة بعد المنذر — أي بعد سنة (٥٨٣م) أو (٥٨٤م) (نولدكة ١٩٣٣: ٣٤) كانوا ضعافاً ومدة حكمهم كانت قصيرة(سالم ١٩٨٠: ٢٠٨).

ومما لا شك فيه أن دخول الساسانيين لبلاد الشام في سنة (٦١٣م) و (٦١٤م) قضى على ملك بني جفنة، واستطاعوا احتلال بلاد الشام (حتي ١٩٨٦ : ١١٨؛ سالم ١٩٨٠: ٢٠٨؛ علي ١٩٧٠: ٤١٨؛ نولدكة ١٩٣٣: ٤٦؛ زيدان ب. ت: ٢١٨) فتفرق الغسانيون في الصحراء أو في بلاد الروم (سالم ١٩٨٠: ٢٠٨؛ معروف ١٩٧٥: ١٠٠)، ولم يتولّ في الفترة من دخولهم الشام في تلك السنة وخروجهم منها على أيام هرقل في سنة (٦٢٩م) أمير غساني في بلاد الشام الجنوبية (سالم ١٩٨٠: ٢٠٨).

ومما يؤسف له أن الكتبة السريانيين والبيزنطيين واليونانيين انقطعوا عن رواية أخبار آل جفنة بعد المحنة التي أصابتهم، فعدنا لا نجد في تلك الموارد شيئاً يذكر عنهم (علي ١٩٦٩: ٤١٨؛ نولدكة ١٩٣٣: ٣٥؛ Khalidi 1956: 205)، ولكن المادة الوحيدة الموجودة التي تتحدث عن هذه الفترة من حياة الغساسنة قدمت من قبل بار هبرس (Bar Hebraeus)، ومن قبل الشعر القديم الذي تحدث عن حياتهم وعن أحوالهم. ولهذا فنحن مضطرون إلى التقاط أخبارهم

من دواوين الشعراء المعاصرين مع ما في هذه الدواوين من الإبهام، ومع انه لا يمكن أن نعول عليها لتحديد زمان كل أمير منهم (نولدكة ١٩٣٣: ٣٥). ومن هؤلاء الملوك الذين عرفناهم من شعر العرب: ابن سلمى، ويزيد بن عمرو، جبلة بن الأيهم، الذين ذكرت أحوالهم واجتماعاتهم وبعض أخبارهم فيه (زيدان ب. ت: ٢٠٩)

جبلة بن الأيهم

تقول الروايات العربية انه كان ملكاً على الغساسنة وانه كان آخر ملوكها. ومن الروايات العربية نعرف انه عاش حياة مترفة، وزود بلاطه بأفخم وسائل الزينة وأسباب الراحة والبذخ، مما جعله قبلة الشعراء الذين كانوا يتبارون في الحصول على منحه وعطاياه، وقد قاتل خالد بن الوليد في دومة الجندل (سالم ١٩٨٠: ٢٠٩؛ نولدكة ١٩٣٣: ٤٦)، واشترك مع الروم في وقعة اليرموك في ٢٠ آب سنة (٦٣٦م) (سالم ١٩٨٠: ٢٠٩؛ حتي ١٩٥٨: ٤٥٠؛ نولدكة ١٩٣٣: ٤٩).

يزعم الأخباريون أن جبلة بن الأيهم اسلم وحج الكعبة في خلافة عمر بن الخطاب، غير أنه ارتد وهرب إلى بلاد الروم (علي ١٩٦٩: ٤٢٩؛ الأندلسي ١٩٦٢: ٣٧٢) بعد أن حكم عليه عمر بن الخطاب في قضية أعرابي في أثناء الطواف حول الكعبة (معروف ١٩٧٥: ١٠١؛ حتي وآخرون ١٩٨٦: ١١٨)، وقد حاول المسلمون أن يستميلوه إلى جانبهم ولكن جهودهم لم تثمر (نولدكة ١٩٣٣: ٥٠). وهناك روايات كثيرة بشأن مكان ردة جبلة بن الأيهم وتجاه إسلامه، فرواية تجعل ارتداده في مكة، ورواية تجعل ارتداده في دمشق، وأخرى

تذكر انه لم يدخل مطلقاً في الإسلام. ولكن يظهر أن رواية دمشق هي اقرب إلى المنطق، إذ لا يعقل فرار جبلة من مكة إلى بلاد الروم بمثل هذه السهولة، وبينه وبين بلاد الروم مسافات شاسعة مع تعقب المسلمون له, أما دمشق فإنها قريبة من حدود الروم، ولدى جبلة فيها وسائل كثيرة تساعده على الهرب (علي ١٩٦٩: ٤٣٠). ويتفق بعض المؤرخين علـى أن جبلة بن الأيهم امتد حكمه إلى سنـة (٦٣٧م) وهو العصر الذي اسلم فيه أيضاً (سيديو ب. ت: ٣٠).

لقد ذكر أبو الفداء في تاريخه لأسرة غسان المالكة واحداً وثلاثين عاهلاً (حتي وآخرون ١٩٨٦: ١١٥)؛ غير أن حمزة الأصفهاني جعلهم اثنين وثلاثين (زيدان ب.ت: ٢٠٨) أما المسعودي وابن قتيبة فأحد عشر ملكاً (حتي وآخرون ١٩٨٦: ١١٥، علي ١٩٦٩: ٤٣١) وابن الكلبي جعلهم عشرة ملوك فقط (Khalidi: 1956: 201) ، وذكر نولدكه أيضاً أن ملوكها لا يتجاوز عددهم العشرة، أقدمهم حكم في آخر القرن الخامس للميلاد وآخرهم عند ظهور الإسلام، فلا تتجاوز مدة حكمهم قرناً وبعض القرن (زيدان ب.ت: ٢٠٩).

واختلف المؤرخون أيضاً في عدد الملوك من كل اسم على حدة، فذكر حمزة مثلاً خمسة ملوك باسم النعمان، وهم عند ابن الكلبي واحد، وعند نولدكة اثنان (زيدان ب. ت: ٢١١). إن اختلاف مؤرخي العرب على عدد ملوك غسان، لدليل على ما يحوط أسرة جفنة من الغموض (حتي وآخرون ١٩٨٦: ١١٥)، ودليل على أن المؤرخين يلجأون أحياناً للمبالغة واللعب بالحقائق دون احترام للتاريخ والواقع، وغالباً ما يتعارضون حتى مع أنفسهم (Khalidi 1956:201). وقد حذر نولدكة من أن قوائم ملوك غسان يجب أخذها مأخذ الحذر والتحفظ، لأن معظمها مبني على افتراضات وليست حقائق تاريخية

(Khalidi 1956)، وهذه القوائم في نظر (سيديو) لا تستند إلى علم أو معرفة أو دليل ثابت، بالرغم من الترتيب والنظام الذي حاول فيه الكثيرون إبداءه، (انظر جدول ملوك الغساسنة)، وبعض المصادر تقول أن للغساسنة ملكتين شهيرتين "ماوية" (Mawia) التي نصرت زوجة القيصر "ولنس" (Valnes) بعد موته حين حاصرها في تخت ملكها قوم "ويزيغوث" (Wisigoths)، و"مارية" (Maria) الملقبة بذات القرطين لإهدائها إلى الكعبة حين تنصرت لؤلؤتين لا تعرف قيمتها (سيديو ب.ت: ٣٠).

أما المعروف عن نهاية الغساسنة، فقد استدل من أحد الأبيات لأحد الشعراء المعاصرين أن الغساسنة حاربوا المسلمين مراراً إلى جانب الروم، وان خالد بن الوليد أوقع بهم سنة (٦٣٤م) في مرج الصفر جنوبي دمشق. وهذا الكلام يتعلق بقبيلة الغساسنة وليس بالأسرة المالكة، إذا كانت ثمة أسرة مالكة في ذلك الحين (نولدكة ١٩٣٣: ٤٩). وزالت دولة الغساسنة إلى الأبد مع زوال البيزنطيين في بلاد الشام بعد انتصار العرب المسلمين في موقعة اليرموك التي حدثت في اليوم الخامس عشر من رجب الموافق ١٢ آب سنة (٦٣٦ م) (Khalidi 1956: 206).

ملوك غسان على رواية حمزة الأصفهاني

الرقم	ملوك غسان على رواية حمزة الأصفهاني	مدة الحكم بالسنة
.١	جفنة بن عمرو مزيقياء	٤٥
.٢	عمرو بن جفنة	٥
.٣	ثعلبة بن عمرو	١٧
.٤	الحارث الأول بن ثعلبة	٢٠
.٥	جبلة بن الحارث الأول	١٠
.٦	الحارث الثاني بن جبلة بن مارية	١٠
.٧	المنذر الأكبر بن الحارث الثاني	٣
.٨	النعمان بن الحارث	١٥,٥
.٩	المنذر الأصغر بن الحارث	١٣
.١٠	جبلة بن الحارث	٣٤
.١١	الأيهم بن الحارث	٣
.١٢	عمرو بن الحارث	٢٦
.١٣	جفنة بن المنذر الأكبر	٣٠
.١٤	النعمان بن المنذر الاكبر	١
.١٥	النعمان بن عمرو المنذر الأكبر	٢٧
.١٦	جبلة بن النعمان	١٦
.١٧	النعمان بن الأيهم	٢١
.١٨	الحارث الثالث بن الايهم	٢٢
.١٩	النعمان بن الحارث الثالث	١٨
.٢٠	المنذر بن النعمان	١٩
.٢١	عمرو بن النعمان	٣٣
.٢٢	حجر بن النعمان	١٢
.٢٣	الحارث الرابع بن حجر	٢٦

تابع ملوك غسان على رواية حمزة الأصفهاني

الرقم	ملوك غسان على رواية حمزة الأصفهاني	مدة الحكم بالسنة
٢٤.	جبلة بن الحارث الرابع	١٧
٢٥.	الحارث بن جبلة ابن أبي شمر	٢١
٢٦.	النعمان بن الحارث أبو كرب	٣٧
٢٧.	الايهم بن جبلة بن الحارث	٢٧
٢٨.	المنذر بن جبلة بن الحارث	١٣
٢٩.	شراحيل بن جبلة بن الحارث	٢٥
٣٠.	عمرو ب جبلة بن الحارث	١٠
٣١.	جبلة نب الحارث	٤
٣٢.	جبلة بن الأيهم	٣

شكل (١) جدول يبين ملوك غسان على رواية الاصفهاني (زيدان ب.ت: ٢٠٨).

ملوك غسان على رواية المسعودي

١. الحارث بن عمرو بن عامر بن ثعلبة بن ماس (مازن)

٢. الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عامر بن حارثة

٣. النعمان بن الحارث بن ثعلبة بن جبلة بن عمرو

٤. المنذر أبو شمر بن الحارث بن جفنة بن عمرو

٥. عوف بن ابي شمر

٦. الحارث بن ابي شمر

٧. جبلة بن الأيهم

شكل (٢): جدول يبين ملوك غسان على رواية المسعودي (علي ١٩٦٩: ٤٤٥).

ملوك غسان على رواية نولدكة

سنة الوفاة	ملوك غسان على رواية نولدكة	الرقم
توفي نحو سنة ٥٠٠	جبلة أبو شمر	١.
٥٦٩	الحارث بن جبلة ابي شعر	٢.
٥٨٢	المنذر أبو كرب بن الحارث	٣.
٥٨٣	النعمان بن المنذر	٤.
٥٨٣-٦١٤	الحارث الاصغر بن الحارث الاكبر	٥.
٥٨٣-٦١٤	الحارث الاعغرج بن الحاث الاصغر	٦.
٥٨٣-٦١٤	النعمان بن الحارث الاصغر	٧.
	عمرو أخو النعمان وحجر ابنه	٨-٩
٦٣٦	*جبلة بن الايهم*	١٠.

شكل (٣): جدول يبين ملوك غسان على رواية نولدكة (زيدان ب.ت: ٢٠٩).

الغساسنة في علاقاتهم:

أدى اضمحلال دول اليمن الجنوبية إلى هجرة قبائل بأسرها إلى الشمال بحثاً عن ارض جديدة، وكانت النتيجة الأخيرة لهذه الحركة أن جاءت عقب البتراء وتدمر دويلتان جديدتان على أطراف الصحراء، ففي القرنين الخامس والسادس ازدهرت حول دمشق مملكة الغساسنة، وفي الوقت نفسه ازدهرت دويلة اللخميين في الحيرة بالقرب من ضفاف الفرات[1] (موسكاني ١٩٥٧: ٢٠٤). ويرى نولدكة أن الغسانيين انتقلوا إلى سوريا بين الفترة الأخيرة من القرن الخامس وبداية القرن السادس بعد الميلاد، وهذا التاريخ هو الذي ذكرته المصادر غير العربية (Khalidi 1956: 198).

ومن المصادر العربية نجد أن غسان كانت مملكة عربية اتخذت المسيحية لاحقاً ديانة لها (اسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٥؛ Khalidi 1956: 196) عاشت في الجزء الجنوبي من سوريا في مقاطعة حوران (Khalidi 1956:198) ولكنهم كانوا يؤمنون بالمذهب اليعقوبي المخالف لمذهب البيزنطيين الذي انتشر في الشام ومصر (فروخ ١٩٦٤: ٧١)، وقد عرف الغساسنة باسم "العرب المتنصرة" (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٦٥؛ Khalidi 1956: 204).

ولكن الغساسنة كانوا ككل البدو قليلي الاحتفاء بالدين، وقليلي التفريق بين نصرانيتهم الجديدة ووثنيتهم القديمة، إذ كانت قصورهم المتأخرة مملوءة

---

(1) يعتبر تاريخ ممكلة الغساسنة غامضاً، لأنه لم يلق الاهتمام في الحوليات والمصادر العربية وغير العربية. ولكن لحد معين، يمكن الوصول لنتائج الغسانيين من مصادر بيزنطية وسريانية معاصرة ومن مصادر عربية لاحقة، أهمها أن مملكة الغساسنة عاشت لقرن ونصف قبل ظهور الإسلام. (Khalidi, 1956: 193)

بالأصنام. وليس يبدل شيئاً من حكمنا قول القائلين بأن الغساسنة غنموا هذه الأصنام من أعدائهم، ثم أقاموها قي قصورهم شاهداً على انتصاراهم (فروخ ١٩٦٤: ٧١).

أما حدود مملكة الغساسنة فلم تكن علي وجه العموم ثابتة، بل تتبدل وتتغير بحسب تبدل سلطة الملوك وتغيرها (حميد وآخرون ١٩٩٢: ٤٣؛ علي ١٩٦٩: ٤٤٠)، وهي عادة نجدها لدى جميع الممالك والإمارات التي تكونت في البادية أو على أطراف البوادي، حيث تكون معرفة لغزو القبائل ولهذا نجد ملك الغساسنة يتوسع ويتقلص بحسب الظروف، فيصل إلى مقربة من دمشق، وإلى فلسطين الثانية، والكورة العربية، وفلسطين الثالثة (علي ١٩٦٩: ٤٤٠)، وفينيقية لبنان، والى ولايات سوريا الشمالية في بعض الأحيان (نولدكة ١٩٣٣: ٥١).

ونعلم من المصادر العربية المختلفة أن أراضي الغسانيين شملت شمال وجنوب دمشق – مع استثناء دمشق – ووصلوا لشرق الصحراء السريانية، وللجنوب حتى نهر الأردن، بالإضافة إلى فلسطين وشواطئ لبنان (Phonecia)– كما ذكر سابقاً – ولأبعد أيضاً حتى شمال حمص مع استثناء "حمص" المدينة (Khalidi 1956:200). أما بصرى القديمة التي كانت في الماضي – لمرة واحدة – عاصمة للغسانيين – الموجودة في مقاطعة حوران جنوب سوريا من المدن المشهورة التي ذكرت أيضاً من أراضي الغسانيين (Khalidi 1956, 200) و تقع خرائبها اليوم على بعد (١٤١) كم إلى الجنوب من دمشق (حميد وآخرون ١٩٩٢:٤٣). مع أن بصرى كانت عاصمة الولاية التي سكنها الغساسنة إلا أن وجود معسكر أجنبي جعل الغساسنة يبتعدون عن سكناها كي لا يبقون تحت

رحمة القوى البيزنطية، بالنظر لما كان يعتري علاقاتهم مع حكام هذه القرى من تصدع، وما يقع بينهم من منازعات وحروب.

ومن الجدير بالذكر أن الغساسنة لم يتركوا في بصرى ما هو جدير بحضاراتهم، وان جعلوا منها عاصمة دينية وأقاموا فيها أول كاثدرائية، ولعلهم تمكنوا من ذلك في الرصافة وشرقي حوران (هنسي ١٩٨٧: ١٥٦).

وأيضاً البلقاء (Balaqa)، وجلق (Jilliq) التي كانت المقر أو بعبارة اصح المعسكر الرئيسي الذي تتمركز فيه قوى المملكة (مقداد، مقالة غير منشورة: ١٦)، والجولان (Jawallan) التي ورد ذكرها في الشعر العربي مراراً، ودفن فيها بعض أمراء بني غسان (حميد وآخرون ١٩٩٢ :٤٣) من المقاطعات السورية التي تتكرر دائماً في المصادر العربية مع اسم غسان (Khalidi 1956:200) الجواء، وعذراء، والسند، وصفين وغيرها (علي ١٩٦٩ :٤٣٧).

وقد كانت حوران والجولان من مساكن الغساسنة التي امتدت في أيام الحارث حتى شملت سائر أراضي البادية الواقعة شرقي وجنوبي "طريق ديو كليسيان" الذي يصل بين دمشق وتدمر حتى الفرات، وضمت قصر الحير، والضمير، وجلق "الكورة أو تل الجابية"في أيام الحارث والمنذر. ونستنتج من أشعار العرب، أن حدود مملكة الغساسنة كانت تمتد قبل الإسلام من حوران شمالاً حتى خليج العقبة جنوباً (حميد وآخرون١٩٩٢ :٤٣؛ علي١٩٦٩ :٤٤٠).

نشأت مع دولة الغساسنة دولة أخرى، هي دولة المناذرة (عاقل ١٩٨٨ :١٤٢)، وقد اتخذ الروم البيزنطيين الغساسنة حلفاء لهم (إسماعيل١٩٩٧: ٣٦٥؛ Muller 1979: 130)، وكانت تعتمد عليهم في صد غارات البدو على بادية الشام (Khalidi 1956:203)، كما تقيهم شر هجمات الفرس وحلفائهم من

العرب، وأيضاً اتخذ الفرس المناذرة في الحيرة لنفس الغرض (عاقل ١٩٨٨ :١٤٢). وهكذا وقعت هاتان الدولتان العربيتان على حدود الدولتين الكبيرتين: بيزنطة وفارس، وارتبطت معها بالأحلاف والمعاهدات وكانت كل منهما تشكل Buffer State أي دولة حاجزة تحمي حدود كل من فارس و بيزنطة. ومن الجدير بالذكر أن الغساسنة كانوا يعرفون بـــ"روم العرب" نسبة إلى حلفائهم الروم البيزنطيين (إسماعيل ١٩٩٨٧ :٣٦٥) الذين ضمنوا لانفهسم الموازنة مع اللخميين المتحدين مع الفرس والحيرة (Muller 1979:130).

وفي المصادر البيزنطية والسريانية نجد ذكراً كثيراً "للعرب اليونان" (Greek Arab)، وعرب ما بين النهرين (Arab of Mosoptamia)، وهناك أدلة في المصادر العربية بخصوص الغسانيين واللخميين تدفع للاعتقاد أن "العرب اليونان" هم الغسانيون، "وعرب ما بين هُرين هم اللخميون (Khalidi 1956: 199).

لقد ذكرت المصادر العربية مملكة الغساسنة وملوكهم – غالباً – في مجموعتين: في الشعر الجاهلي (حتي ١٩٥٨: ٤٥٠)، وفي الأساطير والتقاليد القديمة الموجودة في الأدب والأعمال العربية والتاريخية (Khalidi 1956:194). وأول ذكر لمملكة الغساسنة من قبل مؤرخين عرب على أنها ذات وجود سياسي، مع ذكر ديانتها، ومواصفاتها، وحكامها، وحدودها الجغرافية، كان أثناء الحكم الإسلامي في بداية القرن السابع بعد الميلاد (Khalidi 1956: 195). في هذه الفترة المبكرة نجد أن اسم غسان مرتبط باسم آخر ملك وهو جبلة بن الأيهم

(٦٣٥-٦١٤م)، حيث أنه ذكر اسم هذا الملك مرتبط بالأيام الأخيرة لدولة الغساسنة (Khalidi 1956:196).

أما في الشعر الجاهلي، فقد خلدت فخامة بلاط آل جفنة في دواوين عدد من شعراء الجاهلية الذين وجدوا في أمرائه حماة أسخياء (حتي ١٩٥٨: ٤٥٠)، وكان احد هؤلاء الشعراء: النابغة الذبياني المشهور المتوفي عام(٦٠٤ ب.م) (Khalidi 1956:205). فبعد أن تخاصم مع اللخميين نال عطف الغساسنة وثقتهم، وأغدقوا عليه الكثير من نعمهم، وكان يرد على ذلك التغني بمدحهم (حتي ١٩٥٨: ٤٥٠). وكان الآخر حسان بن ثابت المولود عام (٥٦٣ب.م) (Khalidi 1956: 196)، والمتوفي حوالي سنة (٦٦٠ب.م) (نولدكة ١٩٣٣ : ٤٥). وقد كان يصف الغساسنة في كثير من شعره وكان أضعاف ما قاله في المناذرة (مقداد، مقالة غير منشورة: ١٥). ويظهر أن لقرب الغساسنة من يثرب، والمصالح الاقتصادية، والهبات والعطايا التي كان ينالها حسان وأمثاله من الغساسنة بيسر وسهولة لقربهم منهم، اثر كبير في هذا المدح والتعصب لغسان على آل لخم (علي ١٩٦٩: ٣٩١) لذلك يجب توخي الحذر في شعرهم لأنهم كانوا يقولونه من اجل نيل استحسان الغسانيين (Khalidi 1956: 204).

ولكن وردتنا معلومات هامة جداً من هذه الأشعار، منها أن الغساسنة كانوا يقيمون بالقرب من دمشق، في موضع على نهر بردى يعرف "بجلق" (سالم ١٩٨٠: ٢١٠؛ نولدكة ١٩٣٣: ٥١)، وان صح ما يقوله حسان بن ثابت، فإن قبر "ابن مارية" كان أيضاً في جلق (نولدكة ١٩٣٣: ٥١). وقد اشتهر "جلق" ببساتينه وبكثرة أشجار الزيتون، وكان الغساسنة يدفنون فيه موتاهم، ولهم ضريح فيه ضم رفات ملوكهم (علي ١٩٦٩: ٤٣٧).

واتخذ الغساسنة مدينة الجابية مركزاً لإمارهم، وتقع الجابية بالقرب من مرج الصفر في شمال حوران (سالم ١٩٨٠: ٢١١) واشتهرت بأنها كانت مقر الملوك، ولذلك عرفت بجابية الملوك كما عرفت أيضاً "بجابية الجولان" (علي ١٩٦٩: ٤٤٠).

شواهدهم الحضارية

يصف الأصفهاني منطقة غسان بقوله: "أنها ارض غنية، تحتوي على الخمر والتمر والحرير"، ومثل هذه الأخبار بالرغم مما فيها من مبالغة تدل على حالة اقتصادية مزدهرة ولا بد أن الغساسنة أيضاً أتقنوا الفنون الضرورية للاستفادة التامة من مياه الأمطار، واستثمار الينابيع الجوفية، وهي فنون اكتسبها السوريون في العصر الروماني وأضاعوها بعد ذلك (حتي ١٩٥٨: ٤٥١). وقد اشتغل الغساسنة بالزراعة، فاستغلوا مياه حوران التي تتدفق من أعلى الجبال في الزراعة (سالم ١٩٨٠ :٢١٢)، فعمرت القرى والضياع التي بلغ عددها ثلاثين قرية (إسماعيل ١٩٩٧ :٣٧٢).

أما التجارة، فنعرف من المصادر المختلفة أن غسان وجارها مملكة اللخميين في الحيرة استفادت وأخذت دوراً نشطاً في تبادل السلع بين الشرق و الغرب، وفي أثناء مراحل معينة كانت تقوم بحماية بعض القوافل المارة من أراضيها بربح وفائدة معينة لها (Khalidi 1956:203). ويقول ياقوت الحموي أن الغسانيين واللخميين تاجروا مع بعضهم، وكانت عواصمهم مستقرة بجانب وفرة من الماء، والشجر، وتربة غنية (Khalidi1956: 203).

غير أن اهتمام أمراء غسان بالبنيان كان اعظم، فعلى الرغم من إقامتهم في البوادي – فالهم أقاموا كثيراً من الأبنية من قصور وقناطر وأبراج وغيرها (سالم ١٩٨٠: ٢١٢). وينسب حمزة الاصفهاني إلى ثلاثة عشر أميراً منهم تشييد القصور والأبنية العامة (سالم ٢١٢:١٩٨٠؛ نولدكة ١٩٣٣: ٥٤).

ولكن مثل هذه الأخبار عن الغساسنة ليست سوى أقاصيص وخرافات قد تصيب الحق أحياناً وقد تخطئه، بسبب عدم وجود مستندات أصلية تؤكد هذه الأخبار (نولدكة ١٩٣٣: ٥٤).

أما مباني الغساسنة فقد كانت مبنية بالحجر الأبيض الذي كان يجلب من الجبال القريبة (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٧٢)، ويضيف ياقوت الحموي أن جدران منازلهم كانت مزينة بالفسيفساء، والسقوف ملونة بجداريات مذهبة، وهذا إن دل علي شيء فهو يدل على درجة من الرخاء، ويدل أيضاً على أن الغسانيين لم يكونوا بدواً بل كانوا مجتمعات مستقرة نوعاً ما (Khalidi 1956: 203).

وقد كانت حضارة الغساسنة متأثرة إلى حد كبير بالحضارتين الساسانية والبيزنطية (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٧٢؛ سالم ١٩٨٠: ٢١١)، وحضارتهم على هذا النحو تتفق مع الحضارة الأموية التي أخذت أصولها من الحضارتين الساسانية والبيزنطية أيضاً (سالم ١٩٨٠ : ٢١). الأمر الذي أدى إلى ارتباك علماء الآثار في نسبة بعض الآثار العربية في البادية مثل "قصر المشتى" إذ ينسبه بعضهم إلى العصر الأموي (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٧١)، والبعض الآخر ينسبه إلى الغساسنة (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٧١؛ حميد وآخرون ١٩٩٢: ٤٣؛ علي ١٩٦٩: ٤٤١)، والبعض الآخر إلى الفرس الساسانيين (ديسو ١٩٥٩ :٣٨).

ومن اشهر القصور الغسانية: "القصر الأبيض" ذو السور المربع والنقوش الجميلة من صور الطير، والخيل، والفهود، والسباع، وحتى الأسماك (بهنسي ١٩٨٧، ١٥٦؛ زيدان ب.ت: ٢٢٠). وينسب إليهم أيضاً "قصر الصفا" و"قصر النمارة" و:قصر السويداء" و"قصر بركة" و "قصر ابين" وغيرها (زيدان ب.ت: ٢١٩) وذكر لهم العرب أبنية أخرى يصعب معرفة أماكنها، لقلة العناية بالتنقيب عن آثار هذه الدولة ولتحريف بعض أسمائها (زيدان ب. ت : ٢٢٠).

وهناك أيضاً الكثير من القلاع المنسوبة إلى الغساسنة، مثل "قلعة البرج" التي عثر في خرائبها على كتابة يونانية تشير إلى أنها كانت من أبنية الغساسنة (حميد وآخرون ١٩٩٢: ٤٤)، وهذه الكتابة تقول:"البطريق الشريف والأمير المنذر" وهو ما يدل على أنها كانت من آثار المنذر (علي ١٩٦٩: ٤٤١).

ونتيجة لمخالطة الغساسنة للروم واشتراكهم في قتال الفرس فقد أجادوا الفنون الحربية ووسائل الدفاع واكتسبوا خبرة فائقة (إسماعيل ١٩٩٧: ٣٧٢). وأيضاً اقتبس الغساسنة من اللغة اليونانية كثيراً من الكلمات مثل: الكنيسة، والراهب، واستخدموها في كتاباتهم ومخاطباتهم (إسماعيل ١٩٩٧ : ٣٧٢)، ومهما يكن من تأثر الغسانيين بغيرهم من الشعوب فإن ما يفوق ذلك أهمية هو أن الغساسنة قد نقلوا كأسلافهم الأنباط بعض عناصر أساسية في الحضارة السورية إلى أقربائهم الأصليين في الجزيرة العربية، وخاصة الحجاز مهد الإسلام في المستقبل (حتي ١٩٥٨: ٤٥٢).

وقبل أن يزول الغساسنة نقلوا بعض الأفكار المسيحية التي كان لها تأثيرها مع بعض أفكار أخرى على الإسلام، وهكذا زودت الحضارة السورية الإسلام ببعض العناصر المبدعة، كما فعلت بالنسبة لليهودية والنصرانية من قبل.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الدول السورية الواقعة على الحدود وذات الأصل العربي وأخرها دولة الغساسنة، قد مهدت الطريق نوعاً ما لفتح العرب لسورية في المستقبل تحت راية الإسلام (حتي ١٩٥٨: ٤٥٢).

خاتمة

من خلال هذا البحث الذي تناول الشعوب أو الأقوام القديمة التي ذكرت وهي الشعوب الثمودية، والصفوية، والنبطية، والغسانية. فلا يجوز تسمية هذه الشعوب بالشعوب البائدة أو بالبدو، وذلك لأن شعباً يمتلك مثل هذه الثقافة والمعرفة والحضارة لا يمكن أن يزول أبداً فهو قائم من خلال الكتابات والرسوم والعمائر المختلفة المنتشرة في شتى أنحاء الجزيرة العربية. فالقبائل الصفوية والثمودية مثلاً، لم تكن بدائية أو منعزلة أو منغلقة على نفسها، وإنما كانت على قدر من التحضر وارتبطت بعلاقات عديدة مع الشعوب والأمم المجاورة، ومن المؤكد أنها لعبت دوراً ما في التاريخ القديم لهذه المناطق.

ومن خلال هذه الكتابات والنقوش الموجودة، استطعنا أن نعرف معلومات ما كنا لنعرفها لولا فكر وثقافة الشعوب القديمة الذين أرادونا أن نعرف وان نستكشف حضاراتهم وعاداتهم وتاريخهم. وفي العموم فإن شعباً يمتلك هذه المعرفة يجب دراسة كل ما يتعلق به.

ويستنتج أيضاً أن بعض الشعوب التي عاشت في الجزيرة العربية قبل الإسلام، في الجزء الشمالي أو الجنوبي من الجزيرة العربية كانت مرتبطة مع بعضها بالوحدة، فكم من آلهة تتلاقى أسماؤها أو صفاتها، حيث أن عبادة الآلهة كانت مشتركة مع معظم الأمم السامية، الأمر الذي يقود إلى احتمالية وجود علاقات تجارية انعكست على مناحي الحياة الأخرى، وبعض هذه الآلهة أيضاً وردت ضمن الآلهة الأشورية، والأنباط، والكنعانيين، والتدمريين وغيرهم.

وكم من طقوس تعاود الظهور في شعب بعد شعب، وهناك الخصائص اللغوية المشتركة التي تجمع بين شعب أخر، حيث أن الخط العربي الجنوبي – المسند- هو اصل معظم الخطوط العربية الحبشية، وأيضاً هنالك التأثيرات المتشابهة التي استوحاها العرب من الخارج، والتي صنعوها بأنفهسم وابتكروها. فهذه الروابط تشكل بين الدول وحدة جزئية، لان هناك اختلافات كثيرة قائمة يجب مراعاها سواء في العمارة، أو في الحياة الاجتماعية التي كانت في السابق.

أن الاستعراض السابق لمجمل هذه الشعوب العربية الواردة في هذا الكتاب تحتاج أيضاً لمزيد من الدراسة والتحقيق في هويتها وحضارتها ونسقها التاريخي الذي تفتقر إليه جل المكتبات العربية. وما هذه إلاّ مساهمة يسيرة في هذا الإتجاه. لعلها تكون بادرة تدفع إلى مزيد من الدراسة والبحث.

خاصة وأن هذا الموضوع يقع في باب بيان الهوية العربية عموماً وهذا جُل ما يحتاجه الباحث والدارس للتاريخ العربي خاصة لارتباط هذه القبائل العربية مع الأردن والتي سكنت فيه وجابت طوله وعرضه في حراك اجتماعي واضح من خلال مخلفاتهم المدونة وحضارتهم وشواهدها الماثلة حتى الآن.

المصادر والمراجع العربية

المراجع العربية:

- القرآن الكريم.
- أبو عساف، علي

1997 الكـــتابات البدوية (الكتابات الصفوية). الحوليات العربية السورية، المجلد 41: 63-73.

- إسماعيل، حلمي محروس

1997 الشـــرق العربي القديم وحضارته "بلاد الشام ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة". مؤسسة شباب الجامعة — الإسكندرية.

- الأندلسي، أبي محمد بن حزم.

1962 جمهرة أنساب العرب، دار المعارف.

- الأنصاري، عبد الرحمن وغزال، احمد وكنج، جفري

1984 مواقـــع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية، مطابع جامعة الملك سعود.

1986 قـــرية الفاو، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، جامعة الملك سعود، الرياض، ص 217-274.

- البستاني، بطرس

قاموس عام لكل فن ومطلب، ج2، دائرة المعارف، بيروت، ص 707.

- البشابشة، محمد ذيب

1994 الإلـــه رضي- رضي في النقوش الثمودية والصفوية رسالة قـــدمت اســـتكمالاً لمتطلـــبات درجة الماجستير في جامعة اليرموك معهد الآثار والأنثروبولوجيا، قسم النقوش.

- البعلبكي، منير

١٩٨١ موسوعة المورد "دائرة معارف إنجليزية عربية مصورة". دار العلم للملايين – بيروت، المجلد الرابع.

- البكر، منذر عبدالكريم

١٩٧٨ دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام "تاريخ الدول الجنوبية في اليمن".

- البكر، منذر عبدالكريم

١٩٨٧ دراسة الميثولوجيا العربية، الديانة في بلاد العرب قبل الإسلام. المؤرخ العربي، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب – بغداد، العدد ٣٣: ٢٥٥-٢٧٢.

- الجبور، خالد سليمان

١٩٩٦ وادي سلمى. الأنباء، مطبعة جامعة اليرموك، العدد ١٩: ١٧-١٩.

- حتي، فيليب

١٩٥٨ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد المنعم رافق، دار الثقافة – بيروت، الجزء الأول.

- حتي، فيليب جرجي، ادوارد وجبور، جبرائيل

١٩٨٦ تاريخ العرب، دار غندور للطباعة النشر والتوزيع.

- حميد، عبد العزيز والعبيدي، صلاح حسين

١٩٩٢ الفنون العربية الإسلامية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة بغداد.

- ديسو، رينيه

١٩٥٩ العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، لجنة التأليف والترجمة النشر.

- الرشيد، ناصر بن سعيد.

١٩٨٤ تعامل العرب التجاري وكيفيته في العصر الجاهلي، الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك مسعود ٢١٥-٢٤٩.

- الروسان محمود محمد

١٩٩٢ القبائل الشمودية الصفوية، دراسة مقارنة، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية — الرياض.

- الروسان، محمود محمد

١٩٩٦ نقوش ثمودية جديدة، الأنباء، مطبعة جامعة اليرموك العدد ١٩: ١٥-١٦.

- زيدان، جرحي.

بدون تاريخ العرب قبل الإسلام, دار الهلال.

- سالم، سيد عبد العزيز

١٩٨٠ دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار لبنان للطباعة والنشر- بيروت، الجزء الأول.

- سيد، عبد المنعم عبد الحليم

١٩٨٤ الأصول المصرية القديمة لبض المظاهر الحضارية في الجزيرة العربية قبل الإسلام. الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، ٣٥٣-٣٨٥.

- سيديو

بدون تاريخ خلاصة تاريخ العرب، دار الآثار – بيروت.

- الشامي، احمد عبد الحميد

١٩٧٨ تاريخ العرب والإسلام "حضارة العرب قبل الإسلام، حياة محمد وظهور الإسلام". مطابع سجل العرب.

- الشتلة، إبراهيم يوسف

١٩٨٠ الـثموديين. الـدارة، المملكة العربية السعودية – الرياض، العدد ١٨٥:٤-٢٠٠.

- شرف الدين، احمد حسين.

١٩٨٤ مسـالك القوافل التجارية في شمال الجزيرة العربية وجنوبها، الجزيـرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، ٢٥١-٢٥٧.

- شنار زهير

١٩٩٤ صفويات وثموديات: خسف القمر – نقش من غدير الملاح يحـتوي على اشعار بخسوف القمر. الأنباء. مطبعة جامعة اليرموك، العدد ١٦: ٢٥-٢٦.

- طلفاح، احمد سالم

١٩٩٣ الآلهـة عـند الثموديين. رسالة قدمت استكمالاً لمتطلبات درجـة الماجسـتير في جامعـة اليرمـوك، معهـد الآثار والأنثروبولوجيا قسم النقوش.

- عاقل، نبيه

١٩٨٨ تـــاريخ العـــرب القديم والعصر الجاهلي. مطبعة خالد بن الوليد.

- عباس، احسان.

١٩٩٠ تاريخ بلاد الشام من قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي، مطبعة الجامعة الأردنية — عمان.

- عبد الحميد، سعد زغلول

١٩٧٦ تـــاريخ العـــرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر — بيروت.

- عبد العليم، مصطفى كمال

١٩٨٤ تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في العصرين الـــيوناني والـــروماني. الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، ٢٠١-٢١٣.

- عبد الله، يوسف محمد

الـــنقوش الصـــفوية ام الـــنقوش العادية. الجوبة، مقالة غير منشورة، ٦٣-٨٣.

- عبودي، هنري، س

١٩٨٨ معجم الحضارات السامية، طرابلس — لبنان.

- علي، جواد

١٩٦٩ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين — بيروت، الجزء الثالث.

- علي، جواد

١٩٧٠ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين – بيروت، الجزء السادس.

- علي، جواد

١٩٧٦ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين – بيروت، الجزء الأول.

- علي، جواد

١٩٨٤ أديان العرب قبل الإسلام. الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، ١٠٧-١١٦.

- غلاب، محمد السيد

١٩٨٤ التجارة في عصر ما قبل الإسلام. الجزيرة العربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، ١٨٩-٢٠٠.

- الفاسي، هتون اجواد

١٩٩٣ الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية في الفترة ما بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي. رسالة قدمت استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة الملك سعود – الرياض.

- فروخ، عمر

١٩٦٤ تاريخ الجاهلية. دار العلم للملايين – بيروت.

- كحالة، عمر رضا

١٩٧٩ العرب: من هم، وما قبل عنهم. مؤسسة الرسالة – بيروت.

- الكلبي، أبي المنذر هشام بن محمد

١٩٢٤ كتاب الأصنام، تحقيق احمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٣٧.

- المحيسن، زيدون

١٩٨٨ نقـــوش جديدة من جنوب الأردن. الأنباء، مطبعة جامعة اليرموك، العدد ٥: ٦-٨.

- المحيسن ، زيدون

١٩٩٦ البتراء مدينة العرب الخالدة ، وزارة الشباب،عمان

- المحيسن ، زيدون

٢٠٠٢ هندسة المياه والري عند الأنباط العرب ، عمان

- محيي الدين، علي

١٩٨٤ عـــبادة الأرواح (القوى الخفية) في المجتمع العربي الجاهلي. الجزيـــرة العـــربية قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود ١٥٣-١٦٤.

- معروف، ناجي

١٩٧٥ أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة، بيروت.

- مقداد، سليمان:

الآثار في محافظة درعا. مقالة غير منشورة.

- مهران، محمد بيومي

١٩٨٠ دراســـات تاريخية من القران الكريم في بلاد العرب، المملكة العربية السعودية، الجزء الأول.

- مهران، محمد بيومي

١٩٨٠ دراسات في تاريخ العرب القديم. المملكة العربية السعودية، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر.

● مهران، محمد بيومي

١٩٩٤ تـــاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية — الإسكندرية، الجزء الأول

● موسكاتي، سبتينو

١٩٥٧ الحضـــارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، دار الرقي- بيروت.

● ميليك، جوزيف. ت

١٩٨٨ الـــنقوش والكـــتابات الصفائية. سورية الجنوبية (حوران)، تـــرجمة احمـــد عبد الكريم وميشيل عيسى وسالم العيسى، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع — دمشق.

● نلدكة، ثيودور

١٩٣٣ أمراء غسان، ترجمة بندلي خوري وقسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكية — بيروت.

● هدروس، حسين

١٩٩٣ النقوش الصفوية المؤرخة. رسالة قدمت استكمالاً لمتطلبات درجـــة الماجســـتير في جامعـــة اليرمـــوك، معهـــد الآثار والأنثروبولوجيا، قسم النقوش.

● يحيى، لطفي عبد الوهاب

١٩٨٤ الوضـــع السياسي في شبه الجزيرة العربية حتى القرن الأول المـــيلادي. الجزيرة العربية قبل الإسلام. مطابع جامعة الملك سعود، ٩١-١٠٣.

- Al-Muheisen, Z. and Villeneuve, F.

  1993 Khirbet edh-Dharih, Liber Annuus, XLIII, Jerusalem, pp. 486-489.

  1994 Jordanie: Dharih, Le Monde de la Bible, No. 89 Paris, pp. 41-45.

  1995 Khirbet edh-Dharih AJA, pp. 521-522.

- Cadra, Husein

  1990 Early North Arabian Thamudic E. A preliminary description based on a new corpus of Inscriptions from the Hisma desert of Southern Jordan and published Material. Submitted for the Degree of Ph.D School of Oriental and African studies.

- Cantineau, J.,

  1930-1932 Le Nabateen, 2, vol. Pais, Pp. 17-19.

- Dalman, G.

  1912 Neue Petra Forschungen, Leipzing, P. 57, 92. No. 73.

- Diodorus, S.

  The Library of History, 19, 89-91.

- Glueck, N.

1935 Explorations in Eastern Palestine II, AASOR vol.XV.36.

1965 Deities and Dolphins, The Story of the Nabataeans, London, p. 143-144.

1970 The Other Side of Jordan. Cambridge-Massassuchets, p.32.

- Graf, D.

1990 The Origins of the Nabataeans, ARAM, 2, pp 53-54.

- Hammond, P.C.

1973 The Nabataeans – Their History, Culture and Archaeology, Gothenburg, P. 83, 95-96.

1982 The Excavation at Petra, 1974, Cultural Aspects of Nabataean Architecture, Religion, Art and Influence, SHAJI, Pp. 231-235.

- Harding, lankester and littmann, Enno

1952 Some Thamudic Inscriptions form the Hashimite kingdom of Jordan. E.J. Brill. Leiden.

- Jamme, A

1984 What is Safa'itic Carin? Pre-Islamic Arabia, king Saud Univeristy press, 67-69.

- Khairy, N.

1982 Fine Nabataean Ware With Impressed and Rouletted Decorations, SHAJI, pp. 275-283.

- Kalidi, Isma'il. R

1956 The Arab kingdom of Ghassan, its Origins, Rise and Fall : 193-206, Hartford Seminary Foundation, vol XLVI.

- Macdonald, M.C.A

1979 Safaitic Inscriptions in the Amman Museum and other Collections. ADAJ: 101-117. vol XXIII.

- Macdonald, M.C.A, Macdonald, Ann

1982 The Inscriptions and Rock-Drawings of the Jawa Area. ADAJ: 159-173. vol XXVI.

- Macdonald, M.C.A

1992 Anchor Bible Dictionary: PP. 418-423. New York.

1992 The Seasons and Transhumance in the Safaitic Inscriptions. Journal of the Royal Asiatic Society: 1-11. Cambridge University press. Vol 2.

- Mckenzie, J.

1990 The Architecture of Petra, New York. P 87, 88, 92, 97.

- Muller, Walter. W

1979 Survey of the History of the Arabia Peninsula from the first century A.D to the Rise of Islam. Studies in the History of Arabia: 125-131. king Saud University press-Riyad vol 11.

- Marryay, MA., and Ellis, J.C.

1940 A Street in Petra, London, P1. VII, IX-XXV.

- Starcky, J.

1966 Petra at la Nabatene, Supplement au dictionnaire de la Bible, Vol. VII, PP. 900, 904-920, 985.

- Stephanos, B.

Ethnika: Dousares.

- Strabo,

Geography, XIV, 4, 26.

- Tarrier, D.

1980 Les Triclinia Cultuels et Salles de Banquet (Petra), MDB, 14, pp. 38-40.

1986 les installations de banquet a Petra RB 93. pp. 254-256, p1. 4b.

1988 Les triclinia nabateens dans la perspective des installations de banquet du proche-Orient, These de Doctorate, Paris I-Pantheon-Sorbonne.

- Winnett, Fredrick Victor

  1957 Safaitic Inscription from Jordan. University of Toronto, press.

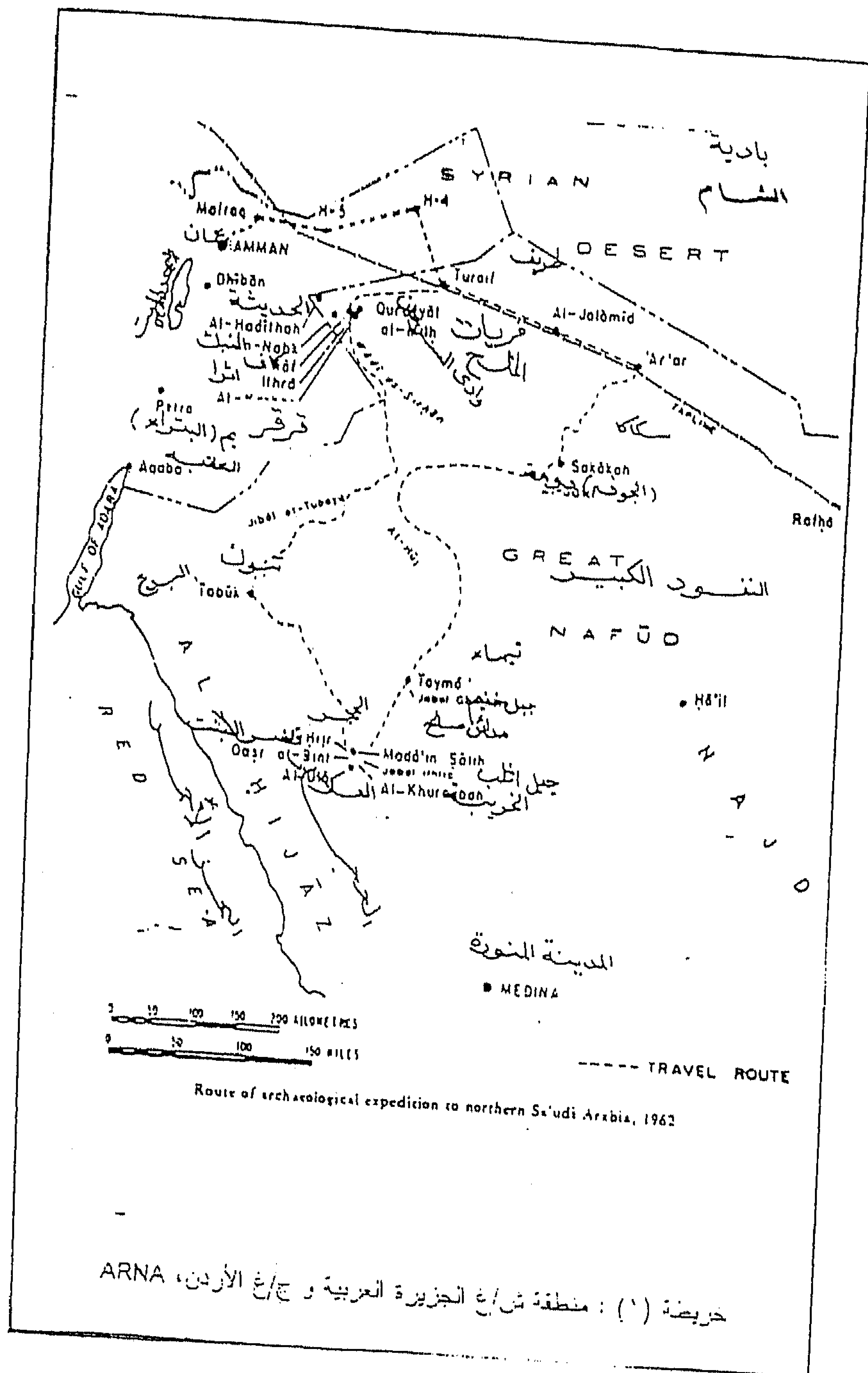
- Zayadine. F

  1980 A Safaitic Inscription in the Amman Archaeological Museum. ADAJ: 107-109. vol XXIV.

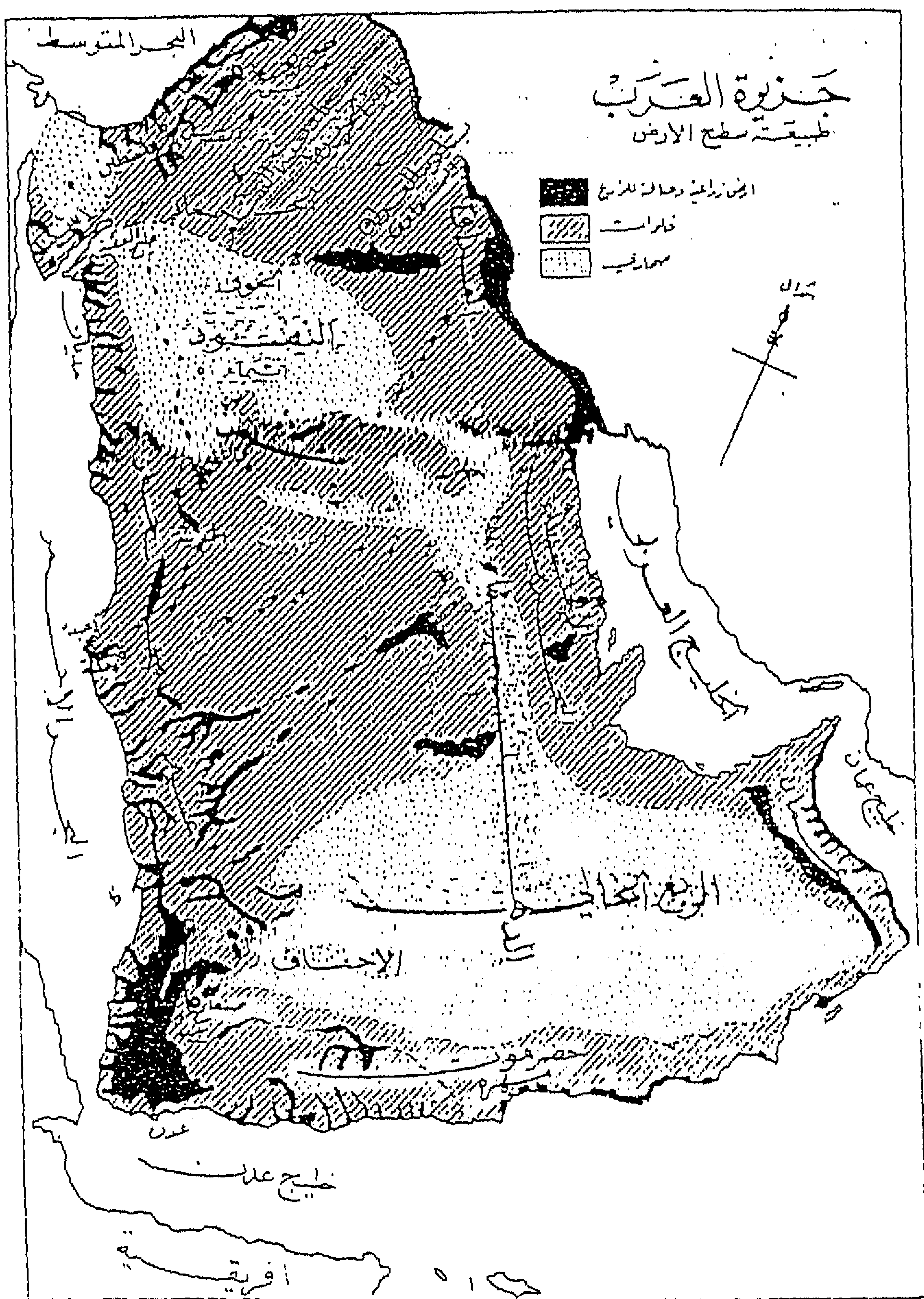
الأشكال

العبرية والعربية	الإنكليزية	الفينيقية	السبئية	اللحيانية	الثمودية	الصفوية
א (ا)	ʾ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ב (ب)	b	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ג (ج)	g	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ד (د)	d	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ד (ذ)	dh		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ה (ه)	h	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ו (و)	w	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ז (ز)	z	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ח (ح)	ḥ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ח (خ)	kh		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ט (ط)	ṭ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ט (ظ)	ṭh		[illegible]			[illegible]
י (ي)	y	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
כ (ك)	k	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ל (ل)	l	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
מ (م)	m	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
נ (ن)	n	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	
ס (س)	s	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ע (ع)	ʿ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ע (غ)	gh		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
פ (ف)	f	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
צ (ص)	ṣ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
צ (ض)	ḍ		[illegible]		[illegible]	[illegible]
ק (ق)	q	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ר (ر)	r	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ש (ش)	ch	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ת (ت)	t	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ת (ث)	th		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

شكل ١: الأبجدية الصفوية والثمودية والأبجديات السامية الأخرى (ديسو ١٩٥٩، ٦١)



شكل ٢: خريطة منطقة تمثل شرق غرب الجزيرة العربية وجنوب غرب الأردن (الفاسي ١٩٩٣، ٣٢٦)



شكل ٣: خريطة تمثل طبيعة سطح الأرض في الجزيرة العربية
(حتي وآخرون، ١٩٨٦، ٧٥)

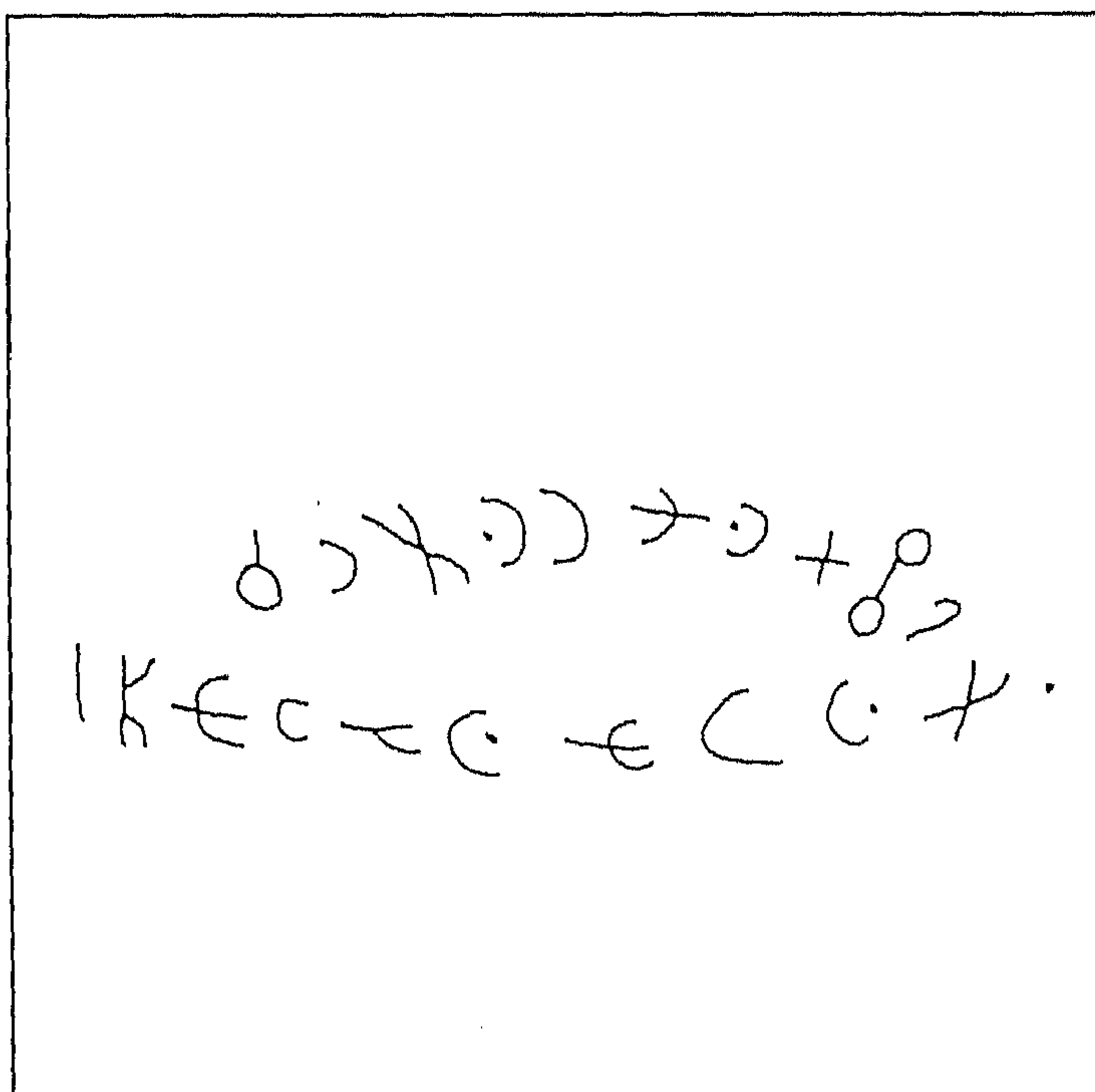


شكل ٤: خريطة بطليموس للعربية السعيدة (حتي وآخرون، ١٩٨٦)

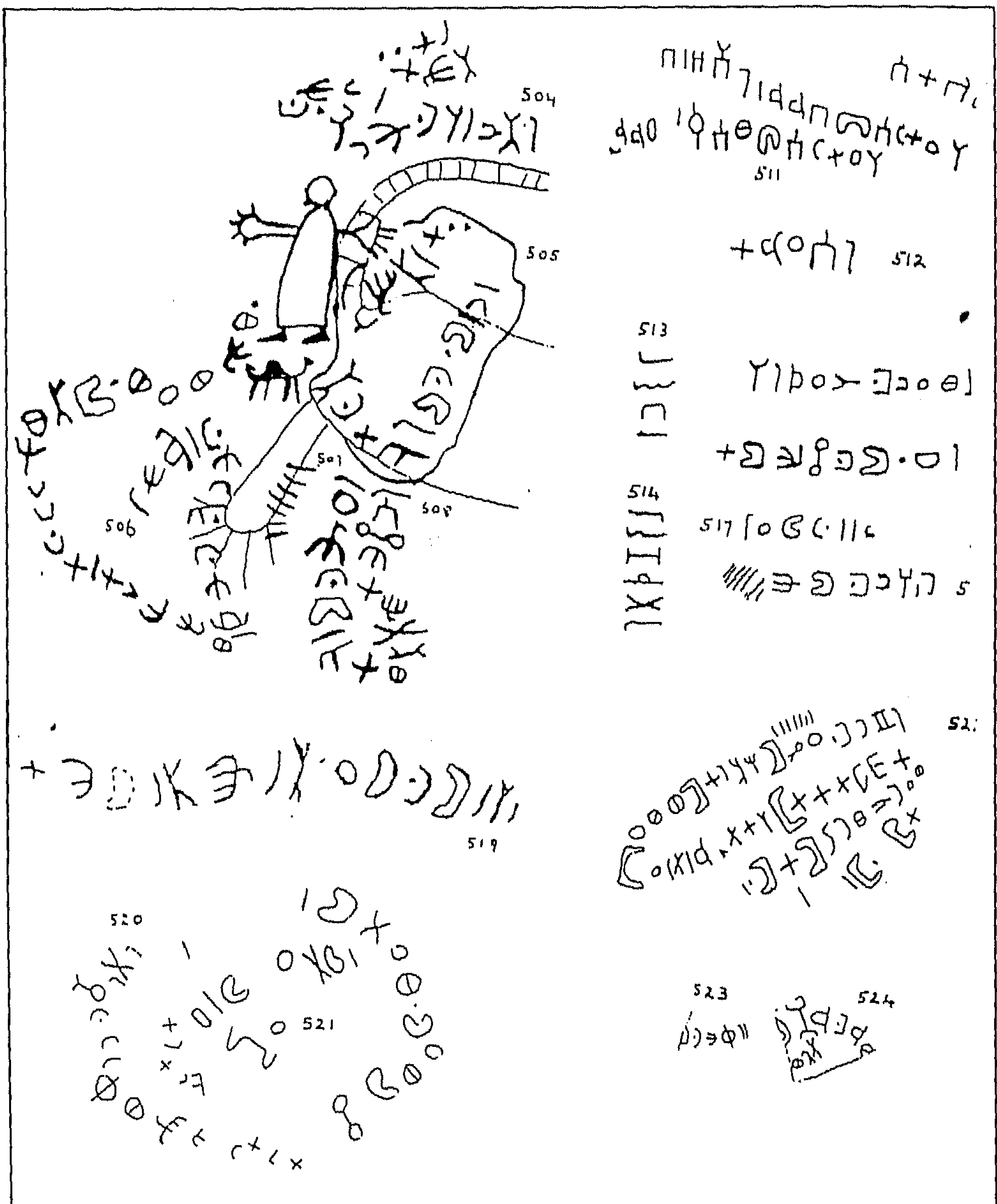
شكل ٥: خريطة تبين الصفا والحرة وجبل حوران (ديسو ١٩٥٩، ١٩)

شكل ٦: صورة ديار العرب للأصطخري (عبد الحميد ١٩٧٦)

شكل ٧: رسم ثمودي لشخص يمثل رجلاً يمتطي جملاً وبيده عصاً ولجام وبجانبه نقش ثمودي (المحيسن، ١٩٨٨، ٧)

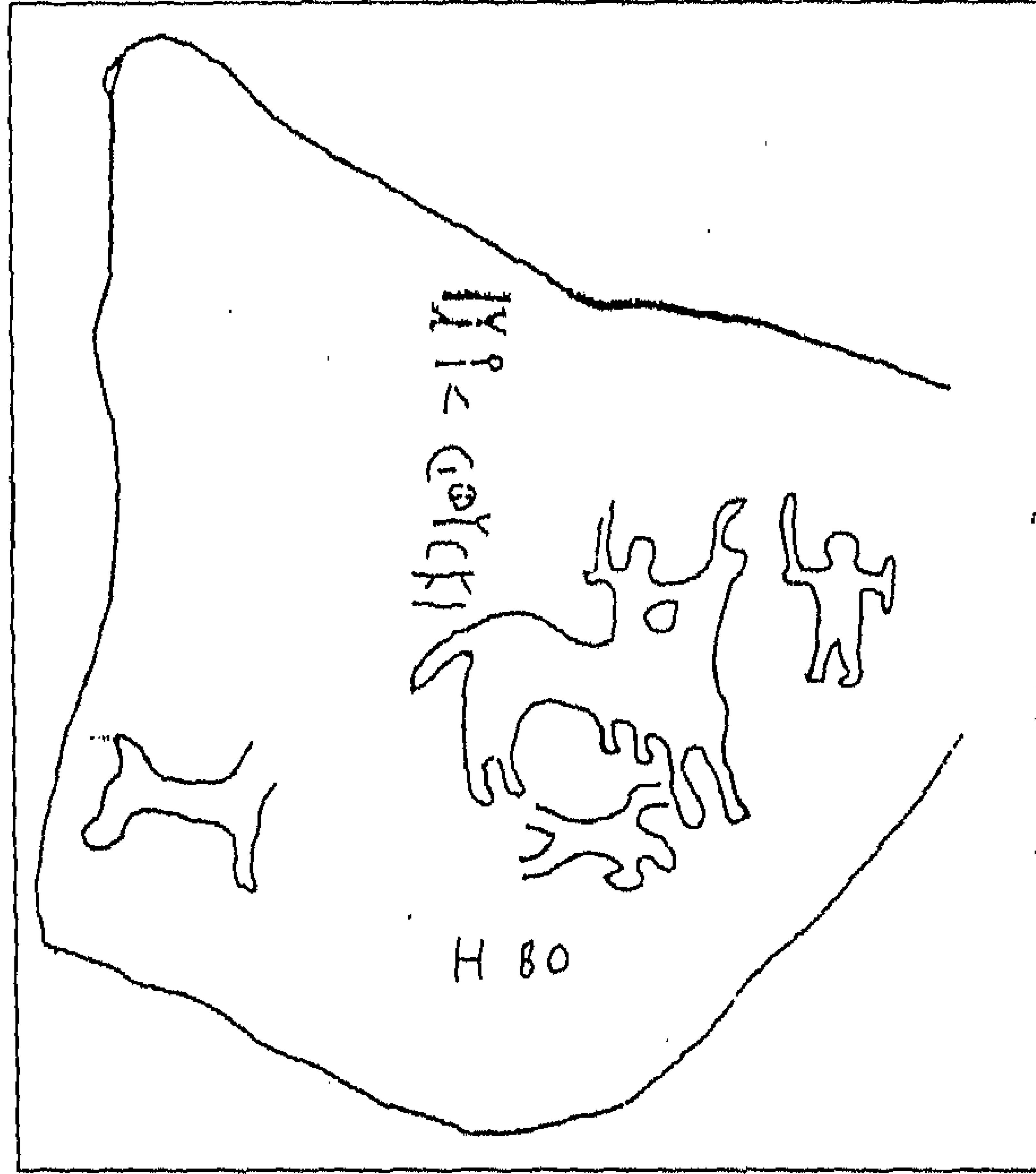


شكل ٨: أحد النقوش الثمودية (المحيسن ١٩٨٨، ٧)



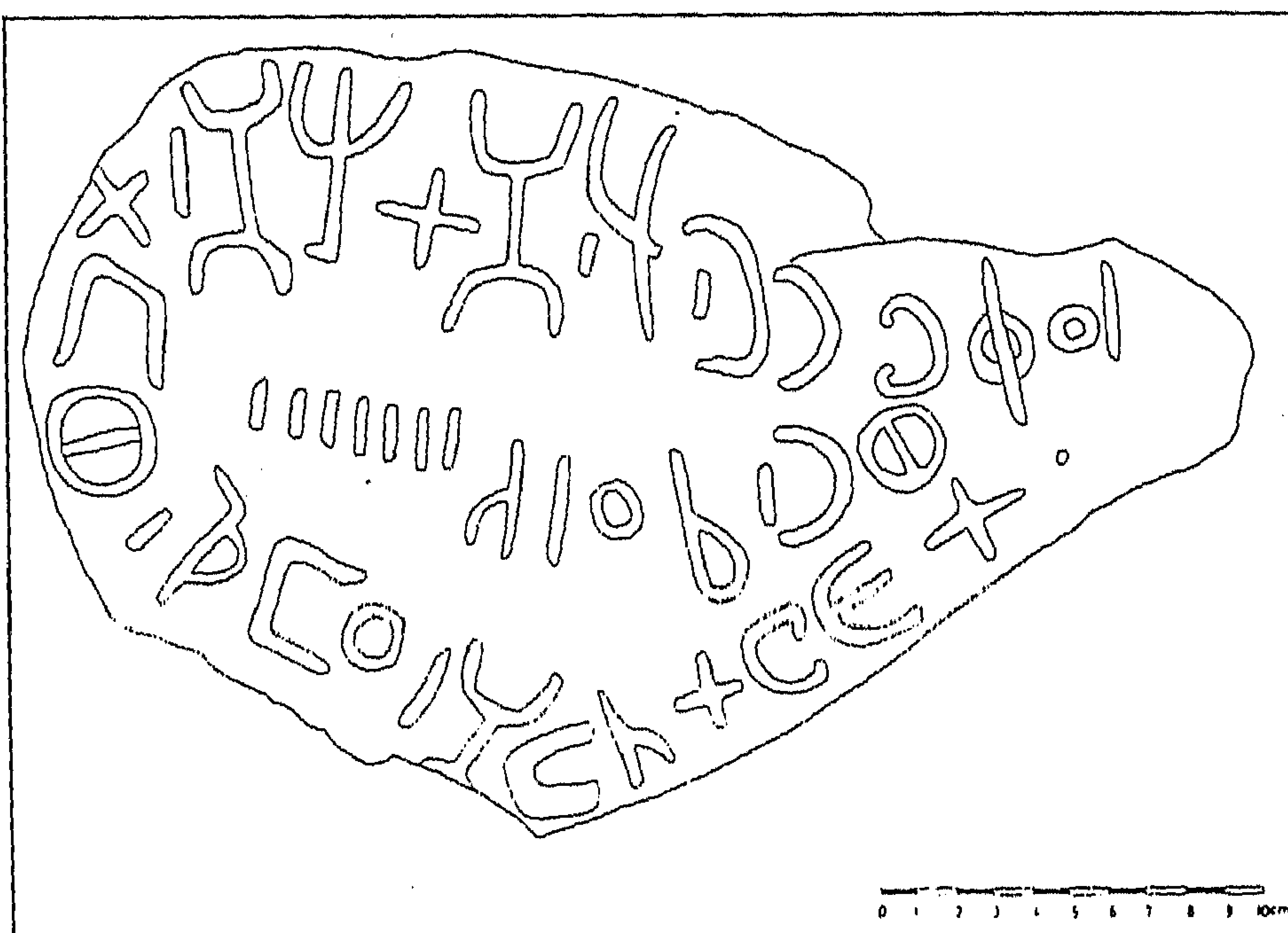
شكل ٩: نقوش ورسوم ثمودية (Harding, Littmann 1952, 83)

شكل ١٠: كتابات ثمودية من أعالي الحجاز (علي ١٩٧٦: ٣٢٧)

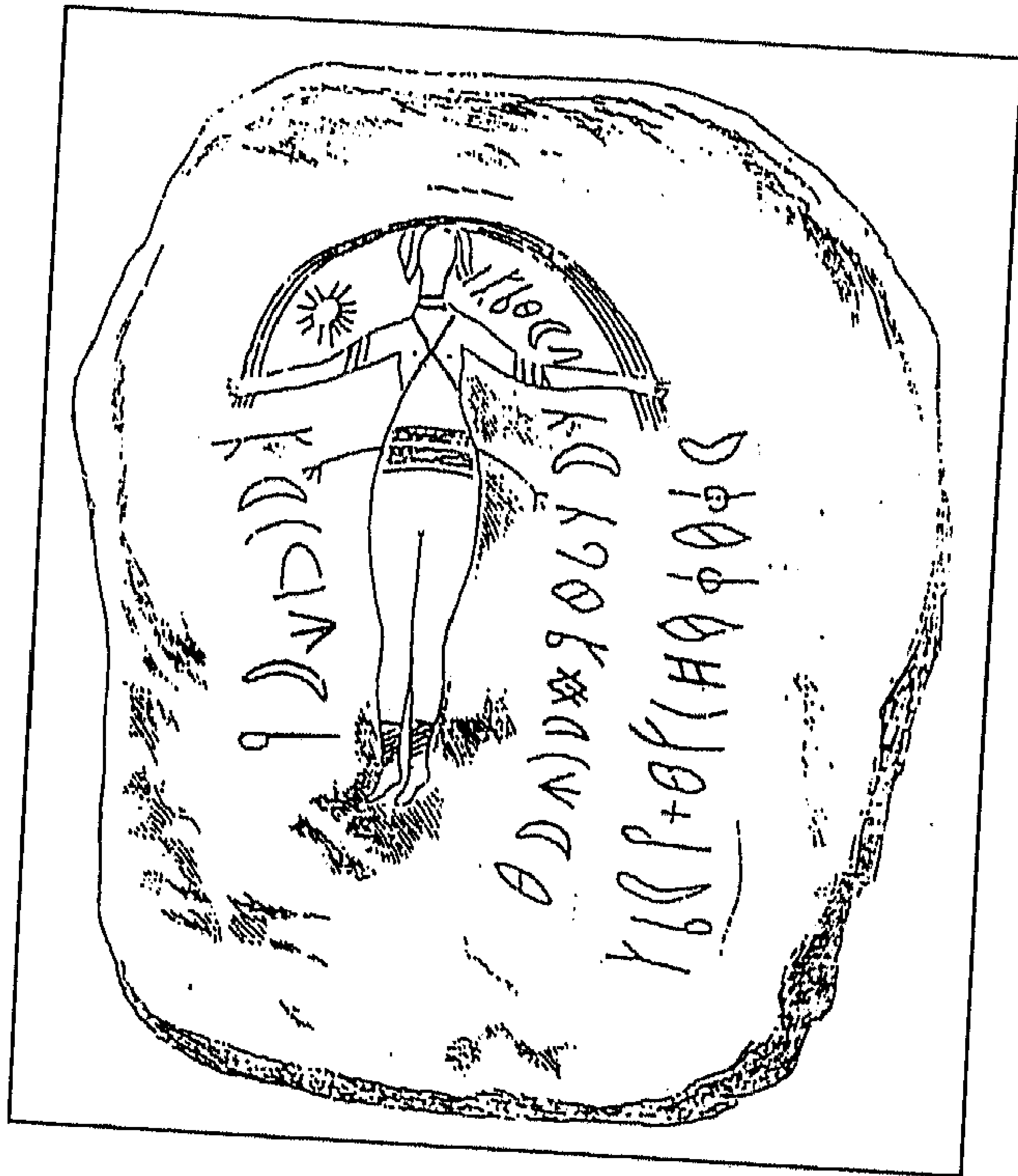


شكل ١١: رسم صفوي يبين شخص يمتطي حصاناً وبيده سيف وأمامه شخص آخر يحمل سيفاً ودرعاً (Winnett 1957: 43)





شكل ١٢: رسم توضيحي لنقش صفوي (Zayadine 1980: 103)



شكل ١٣: ألهة صفوية ربما كانت رضا "نجم السماء" (ديسو ١٩٥٩: ١٣٧)


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



شكل ١٤: خريطة منازل الغساسنة وقصورهم (زيدان، ب، ت، ٢١٩)




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين